# المقامة الخامسة والأربعون وهى الرّمليّة

حكى الحارث بن همّام قال : كنتُ أخذتُ عن أولِي التَّجارِيب ، أن السّفَر مرآةُ الأعاجيب ، فلم أزل أجُوبُ كلَّ تَنُوفة ، وأقتحم كلَّ مَخُوفة ، حتى اجتلبتُ كُلَّ أُطروفة ؛ فمن أحسن ما لَمَحْتُهُ ، وأغربِ ما اسْتَمْلَحتهُ ، أنْ حَضَرْتُ قاضِيَ الرَّمْلة ، وكان من أرباب الدّولة والصَّوْلة ، وقد ترافع إليه بالٍ فى بالٍ ، وذاتُ جمالٍ فى أَسْمال ، فهمّ الشَّيْخُ بالكلام ، وتِبْيان المَرَام ؛ فمنعتْه الفتاة من الإفْصاح ، وخَسَأَتْه عنِ النُّباح ، ثمَّ نَضَتْ عنهـــا فَضْلَة الوِشاح ، وأنشدته بلسان السَّلِيطةِ الْوَقَاح :

* * *

أولى التجاريب ، أى أصحابها وأهلها . أجوب : أقطع . تَنوفة : قفرة . أقتحم : أدخل . اجتليت : رأيت . أُطروفة : عجيبة . لمحته : نظرته . استملحته : وجدته مليحاً . الصولة : الاستطالة . وقد صال إذا استطال وهدّد . ترافع ، أى تداعَى للحكومة ، ورفع كلّ واحـد صاحبَه . بالٍ : شيخ كبير . فى بالٍ : فى ثوب خَلَق ، وأسمال : ثياب خَلَقة ، واحدها سَمَل ، وسمل الثوبُ وأسمل ، ويقال أيضاً : ثوب أسْمال ، فيُوصف بالجمع ، كما يقال : رمح أقصاد ، وبُرْمة أعشار . تبيان المرام : تبيين مراده ، وإظهار حجته . الإفصاح : التبيين . خسأته : أبعدته وطردته . النُّباح : الكلام هنا ، وخسأ ونبح أصلهما فى الكلب ، ويقال : خسأتُ الكلب خَسْئاً : طردته وأبعدته ، وخسأ الكلب بنفسه ، أى انخسأ ،

يتعدّى ولا يتعدّى ، قال تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فيها ﴾ أى تباعدوا تباعدَ سُخْط .
نضَت : جردت . الوشاح : الحزام ، وهو المنطقة . الفنجديهى : الوِشاح شبه قلادة تنسج من أدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها . السّليطة : المستطيلة بلسانها . الوَقاح : الّتى ليس فى وجهها حياء ، فهى تقول ما شاءت .

* * *

يا قاضِيَ الرّمـــلة ياذا الّذِى ... فى يده التَّمـــرةُ والجَمْرهْ
إليك أشكُو جَوْر بَعْلِى الّذِى ... لم يَحْجُجِ البَيْتَ سِوَى مَرّهْ
وليتَـــهُ لمّا قضى نُسْكَهُ ... وخَفَّ ظَهْراً إذْ رَمَى الجمرهْ
كانَ على رأى أبى يوسُفٍ ... فى صِـــلَةِ الحِجَّةِ بالعُمْرَهْ
هـــذا على أُنْثَى مُذْ ضَمَّنِى ... إليـــهِ لَمْ أعْصِ له أمْرَهْ
فمرُهْ إمّا ألفةَ حُـــلْوَةً ... تُرْضِى وإمّا فُرقَةً مُرّهْ
من قبـل أن أخلع ثوب الحيا ... فى طاعـــة الشيخ أبى مُرّهْ

* * *

الرّملة : قرية بالشأم ، وقسم الشأم خمسة أقسام ، فَخُمس منه فلسطين ومدينته العظمى الرّملة ، والرملة أربعة آلاف ضَيْعة ، ومن مدن فلسطين إيلياء مدينة بيت المقدس ، بينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا . وقال ابنُ ظَفَر : عشرون فرسخاً . التّمرة والجمرة : الخير والشّرّ ، والنفع والضّر ، ويضرب بهما المثل فى هذا المعنى ، ومَنْ قضى له القاضى بشىء فكأنه قد أعطاه . والبيت ، عَنَتْ به فَرْجَها يُحْجَج : يقصد إليه بالجماع ، وقولها . سوى مرّة ، تريد أوّل مرّة وطئها وافترعها ولم يَعُدْها بعد تلك المرة ، وتعنى بالنّسك افتراعها وما هناك من الدم . وعَنَتْ برمى الجمرة إتيانه لها ، وجَمْع الجمر جمار ، وهى الحجارة الصغار عند العرب ، وجَمَّر الرجل تجميراً : رمى جمار مكة ، قال عمر بن أبى ربيعة :

فلم أر كالتجمـــير منظرَ ناظرٍ ولا كَلَيالى الحج أفلتن ذا هَوَى

ومنه الحديث: « وإذا استجمرتَ فأوتر » معناه تمسَّحت بالحجارة .

## [ ذكر أبى يوسف صاحب أبى حنيفة ]

أبو يوسف ، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصارىّ. وأبو يوسف كوفىّ صاحَب أبا حنيفة فغلَب عليـه ؛ حتى قالوا : أبو يوسف أبو حنيفة ، أى يسدّ مسدّه ويغنى عنه ، وروى عن أبى حنيفة والمطرّف والمغيرة وهشام بن عروة الشيبانى . وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم ، وكان قاضىَ القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء: المهدى والهادى والرشيد ، وكانت أم جعفر قد استفتته فى مسألة ، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده ، فوافق بذلك مرادَها ، فأهدت له حُقًّا من فضة فيه طِيب وجام فضة فيه دنانير ، فقال له بعضُ مَنْ حضره : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « مَنْ أُهدِيتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، فقال أبو يوسف تأوّلتَ الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من إمضائه ، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التّمر واللبن ، لا فى هذا الوقت، والهدايا ذهب ووَرِق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال أبو جعفر الطحاوى : ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة .

حمّاد : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يَساره زُفَر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسفَ قولاً إلا أفسده عليـه زُفَر ، ولا يقول زُفَر قولاً إلاّ أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلمّا أذّن المؤذّن رفع أبو حنيفة يدَه ، فضرَب بها فخِذَ زُفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة فى بلد فيها أبو يوسف ، فقَضَى لأبى يوسف .

علىّ بن حرملة التيمىّ : قال أبو يوسف : كنت أطلبُ الحديث والفقه ، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال ، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بنىَّ لا تمدَّنَّ رجليك مع أبى حنيفة ، فإن خير أبى حنفية مستورٍ ، وأنت محتاج إلى المعاش ، فقصَّرْت عن كثير من الطَّلَب ، وآثرتُ طاعة والدى . فتفقَّدنى أبو حنيفة، وسأل عنى ، فجعلتُ أتعهَّد مجلسه ، فلمَّا كان أوَّل يوم أتيته بعد تأخُّرى عنه ، قال لى : ما يشغلك عنا ؟ قلت : الشَّغْل بالمعاش ، وطاعة والدى ، فلما انصرف الناس دفع إلىَّ صُرَّة ، وقال : استمتع بهذه ، وإذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الجماعة ، فإذا نفِدَتْ فأعلمنى ، فلزمت الحلْقة ، فلما مضت مدَّة يسيرة دفع إلىَّ مائةً أخرى ، ثم كان يتعهَّدنى كذلك ، وما أعلمته بنفاذها قطُّ ، وكأنه كان يخبر بنفادها ، حتى استغنيت وتموَّلت .

علىّ بن الجعد : حدَّثنى أبو يوسف ، قال : توفِّىَ أبى إبراهيم ، وخلَّفنى صغيراً فى حِجْر أمىٍّ فأسلمتْنى ، إلى قصَّار أخدُمه ، فكنت أدَعُ القَصَّار وأمرّ على حلْقة أبى حنيفة فأجلس وأستمع ، فتجىء أمىٌّ فتأخذ بيدى وتذهب بى إلى القَصَّار . وكان أبو حنيفة يُعنَى بى لِمَا كان يرى من حرْصى على التعلُّم ، فلما طال ذلك على أمىٍّ وكثُر عليها هربى ، قالت لأبى حنيفة : ما لهذا الصبىِّ فساد غَيرك ، هذا صبىٌّ يتيم لاشىء له ، وإنما أطعمه من مِغْزَلى ، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به علىّ نفسه. فقال لها أبو حنيفة : مرِّى يا رعناء ، هاهو ذا يتعلَّم أكل الفالوذج بدُهن الفستق ، فانصرفَتْ عنه وهى تقول : أنت شيخ قد خرِفْت وذهب عقلك . قال : ثم لزمتُه ونفعنى الله تعالى بالعلْم ورفعنى حتى تقلَّدت القضاء ، فكنت أجالس الرشيد ، وآكل معه على مائدته ، فلما كان فى بعض الأيام قُدِّم إليه فالوذجة . فقال لى : كلْ يا يعقوب ، فليس فى كلِّ يوم يُعْمَل لنا مثلها ، فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه فالوذجة بدُهن فُسْتُق ، فضحكت فقال لى :

مِمَّ تضحك ؟ فقلت : خيراً ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لَتخبرنِّى وألحَّ علىَّ ، فحدّثته بالقصّة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك ، وقال : لعمرى إنَّ العلم لينفع ويرفع ديناً ودنيا ، وترحَّم على أبى حنيفة ، وقال : إنه كان ينظُر بعين عقله ما لا ينظره غيرُه بعين رأسِه . وأبو يوسف أوَّلُ من دُعِىَ بقاضى القضاة فى الإسلام .

إسحاق الموصلىّ : حدَّثنى بشر بن الوليد ، وسألته : من أين جاء ؟ فقال : كنت عند أبى يوسف القاضى ، وكنت فى حديث ظريف ، فقلت : حدِّثنى به ، فقال : قال لى أبو يوسف : كنت البارحة قد أَوَيْتُ إلى فراشى ، فإذا داقٌّ يدُقّ الباب بشدَّة ، فأخذت علىَّ إزارى ، وخرجت ، فإذا هو ابنُ أعين يقول : أجب أمير المؤمنين ، فقلت : يا أبا حارثة لِى بك حُرْمة ، وهذا وقتٌ كما ترى ، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين دعانى لمكروهٍ ، فإن أمكنك أن تدَع الأمر إلى غدٍ فلعله أن يحدُث له رأى ! فقال : ما لى إلى ذلك من سبيل ، قلت : كيف كان السبب ؟ قال : خرج إلىَّ مسرور الخادم ، فأمرنى أن آتىَ بك أميرَ المؤمنين ، فقلت : أتأذن لِى أن أصُبَّ علىَّ ماء وأتحنّط فإن كان أمرٌ كنت قد أحكمتُ شأنى ، وإن رزق الله العافية فلن يضرَّ ، فدخلت ففعلت ذلك ، وتطيَّبت ثم خرجنا إلى دار الرشيد ومسرور واقف ، فقلتُ : يا أبا هاشم خِدمتى وحُرمْتى ، وهذا وقت ضيِّق ، أفتدرى لم طلبنى ؟ قال : لا ، قلت : فمَن عنده ؟ قال : عيسى ابن جعفر وحدَه ، ثم قال : مُرَّ فإذا صرت فى الصَّحْن فحرِّك رجليك ، فإنه فى الرواق ، ففعلت ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلت : يعقوب ، قال : ادخل ، فدخلت فسلَّمت فردّ علىّ السلام ، وقال : أظنُّنا روَّعناك ؟ قلت : إى والله ومَنْ خَلْفى ، قال : اجلس ، فلما سكن رَوْعى ، قال : يا يعقوب هَـلْ تدرى لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : لأشهدك على هذا ؛ إنَّ عنده جاريةً ، فسألتُه أن يهبَها أو يبيعها لى

فأبى ، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنّه. فالتفتُّ إلى عيسى وقلت : وما بلغ قَدْر الجارية ؟ أتمنعُها أميرَ المؤمنين وتنزّل نفسك هذه المنزلة ؟ فقال لى: عجّلت القول قبل أن تعرف ما عندى ، إن علىّ يميناً بالطلاق والعَتاق وصدقة ما أملك ألّا أبيعَها لأحدٍ ولا أهبَها ، فالتفت إلىّ الرشيد ، فقال لى: هل لك فى ذلك مخرج ؟ فقلت : نعم ، قال: وما هو ؟ قلت : يهب لك نصفَها ويبيعُك نصفَها،فيكون لم يبِعْ ولم يَهَبْ ، قال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ، قال: فأشهدك أنى قد وهبتُ له نصفَها ، وبعت منه نصفها بمائة ألف دينار ، وأتِىَ بالجارية ، فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، قال: يا يعقوب ، وبقيت واحدة ، قلت : يا أمير المؤمنين ، وما هى ؟ قال : هى مملوكة ولابدّ أن تُستَبرأ ، ووالله إنّ نفسى لتخرج إنْ لم أبِتْ معها . فقلت: ياأميرَ المؤمنين تعتقها وتتزوّجها ، فإن الحرّة لاتُستبرأ، قال: فإنى قد أعتقتُها ، فدعا بمسرور وحسن ، وخَطَبْت وحمدت الله ثم زُوّجت على عشرين ألف دينار ، ودُفع المال إليها ، ثم قال : يا يعقوب انصرف ، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبى يوسف مائتى ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً ، فحمل معى ذلك ، قال بشر : فالتفتُّ إلىّ يعقوب ، فقال : هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقّك منها العُشر فشكرته ، وذهبت لأقوم وإذا بعجوز دخلتْ ، فقالت : يا أبا يوسف ، بنتُك تقرئك السلام ، وتقول : والله ما وصلنى من أمير المؤمنين فى ليلتى هذه إلّا المهر الذى قد عرفت ، وقد جَعَلْت إليك النصف منه ، وخلّفت الباقى لما أحتاج إليه ، فقال: رُدِّيه ، فوالله لا قبلتُه ، أخرجتُها من الرِّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضينى بهذا ، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتى يقبلَها فقبلها وأمر لى بألف دينار .

وأما صلة الحج بالعمرة التى ذكر الحريرى ، فإن أبا يوسف فى ذلك مخالف لمالك رضى الله عنهما فى أن القِران فى الحج أفضلُ من الإفراد ، وهو مذهب

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وقوله : خَفَّ ظهراً ، أى حطَّ عن ظهره بعضَ الذنوب،والذى أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرَّة واحدةً خفَّف بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين ، فورَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى .

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعديه عليه ، وتذكر أنه عِنّين فقال الرجل :

الله يعلم يا مغيرةُ أننى قد دُسْتُها دَوْسَ الحِصَانِ المُرْسَلِ
وأخذتها أخذ المعنّف شاته عَجْلَانَ يذبحُها لقومٍ نُزَّلِ

فقال له المغيرة : إنّى لأرى ذلك فى شمائلك .

وخاصمت الدّهناء بنت مسحل أحد بنى مالك بن سعد بن زيد مناة العجّاج ، وكان من بنى عمها إلى والى اليمامة ، فكان أبوها يُعينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة : ألا تستحى ، تطلب العُسْبَ لابنتك ! فقال : إنّى أحبّ أن يكونَ لها ولد ، فإن أفرطتهم أجِرت ، وإن بَقُوا دعوا الله لها، فدخلتْ على الوالى ، فقالت: إنى منه بجمع ، فقال: لعلّك تغارين الشيخ ؟ فقالت: إنّى لأرخى له بادّى ، وأقيم صُلْبى ، فقال العجاج :

أظنت الدهنا وظنّ مسحَلُ أن الأمير بالقضاء يعجِّلُ
عن كسلاتى والحصان يكْسَلُ عن السِّفاد وهو طِرْف هَيْكلُ

فقالت هى :

والله لولا خشيةُ الأميرِ وخشية الشّرطىِّ والمشيرِ
لجلت من شيخ بنى الفقيرِ كجوَلان صَعْبَةٍ عسير

فأخذها وضمها إليه يقبّلها فقالت :

تاللهِ لا تخـــدعُنى بالضَّمِّ إليك والتَّقْبيل بعْد الشَّمِّ
إلاّ بهزْهازٍ يُسَلِّى هَمِّى ينزع عَنِّى فتجِى فى كُمِّ

فذهب بها إلى أهلها ، فطلّقها فى تلك الليلة مرّا . ولو استقبلها العجاج بما وصف ابن الرومى حيث يقول :

ألَا يا هند هل لك فى ممدٍّ غليظٍ تفرحين به متينْ
يشدُّ به حشاك غلام نَيْكٍ من الفتيان منقطِع القرينْ
فمن يره يبولُ يقول : أنثى بدا من فرجها ثلثا جنينْ

لرضيتْه ، ولم تحاكمه .

قوله :ألفة : صُحْبة . أخلع : أزيل. وأبو مرّة . كنية إبليس لعنه الله ، وكنى بذلك لما تقدّم أنّ أبغض الأسماء إلى الله تعالى مرّة وحرب. تقول : إما يصاحبنى صحبةً يرضينى فيها بكثرة الجماع ، وإلا أزلتُ عنى الحياء وخرجت أزنى وأفسق فى طاعة إبليس ، ولو عالجها بما كان يعالج به رجل زوجتَه ، وكان إذا وقع بينهما شرٌّ انحنى عليها بالجماع ، فكانت تقول : لعنك الله ! كلّما وقع بيننا شرّ جئتَنى بشفيع لا أقدر على ردِّه ! فلو جاءها بهذا الشفيع لما رفعتْه إلى الوالى .

محمد بن يحيى بن حَيّان : عاتبت جدّتى جَدِّى فى قلة الباه ، فقال لها : أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قالت: وما قضاء عمر ؟ قال : قال : إن الرجل إذا أتى امرأته فى كلِّ طُهْرٍ مَرّة فقد أدّى حقها ، قالت : فكلُّ الناس تركوا قضاء عمر ، وأقمتُ أنا وأنت عليه !

وقال إعرابى كَبِر وعَجَز :

عجبت من أيْزِى كيف يَصْنَعْ أدنعـــــه بإصبعى فيرجِعْ
* يقوم بعد الشدِّ ثم يركع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز ، فقال :

النَّفْس تطمع والأسباب عاجزة والنَّفْس تهلِكُ بين العجز والطمع

خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز ، فقال : ويحك ! ما أوسع حِرك ! فقالت :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤُهُ ويشتكى الضِّيق منه حين يَلْقَاهُ

وكان عُروة بن شُيَيْم أوفرَ الناس أيْراً وأشدّهم نِكاحاً ، وكان إذا أنعظ يستلقى على قفاه فيأتى الفصيل الجرِب فيحتَك بأيره يظنّه الجِذْل ، وهو عود فى العَطَن يُنْصَب لتحتك به الإبل الجرْبَى .

ويزعمون أنه أصاب أيْرهُ جنب عروس زُفَّت إليه ، فقالت له : أتهددنى بالركبة !

وهو القائل :

أَلَا رُبَّمَا أنعظتُ حتى إخالُه سينقـــدّ للإنعاظ أو يتمزقُ

فأُعْمِلُه حتى إذا قلت : قدَونَى أبَى وتمطّى جامحاً يتمطَّقُ

وأقبل رجل عَلَى علىّ رضى الله عنه فقال : إن لى امرأةً كلما غشيتُها ، تقول : قتلتنى قتلتنى ! فقال : اقتلها وعلىّ إثمها .

وقع أعشى همدان أسيراً عند الدّيلم ، ثم إن ابنة العلج الذى أسَرَه عشقته ، فكمَنَته ليلة من نفسها ، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات ، فقالت له : يا معشر المسلمين ، أهكذا تفعلون بنسائكم ! قال : هكذا نفعل كلُّنا ، فقالت : بهذا العمل نصرتم ، أفرأيتَ إن خلّصتُك تصطفينى ؟ فعاهدها ، فخلّت قيودَه بالليل ، وأخذت به فى طرقٍ تعرفُها حتى تخلّص ، فقال أسير شاعر فيه :

فمن كان يَفْدِيه من الأسر مالُه فهمْدان تفديها الغداةَ أيورُها

كان عبدالله بن عمر من أنزه النّاس نفساً ، وأبعدِهم عن المزاح وذكر الفاحشة ، فجاءه ابنُ أبى عتيق يوماً ، وكان صاحبَ مُزاح وفكاهة ، وفى يده رُقْعة فيها :

ذهبَ الإله بما تعيشُ به وقَمَرْتَ مالكَ أيَّما قَمَرِ
أنفقت مالك غير مكترثٍ فى كلِّ زانيةٍ وفى الخمرِ

وكانت هجته بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومىّ ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظُرْ هذه الرقعة وأشِرْ علىّ برأيك فيها . فلما قرأها عبد الله استرجع فقال : ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تعفوَ وتصفح ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لئن لقيتُ صاحبَه لأنيكنَّه نيْكاً جيداً ، فأخذ ابن عمر من قوله وأرعد وأزبد ، قال : مالك ؟ غضب الله عليك ! فقال : ما هو إلا ما قلت لك ، وافترقا ، فلمَّا كان بعد أيام لقيه ابنُ عمر ، فأعرض عنه ، فصاح : يا أبا عبد الرحمن ، إنى لقيت صاحبَ البيتين فنكْتُه والله نَيْكا شافياً ، وأقسم على ذلك ، فصُعِق ابنُ عمر ، فلما رأى ابنُ أبى عتيق ماحلَّ به دنا منه ، وقال له فى أذنه : إنَّها والله امرأتى ، فقام ابنُ عمر وقد سُرِّىَ عنه ، وهو يضحك ، فقبَّله بين عينيه ، وقال أحْسَنْتَ ، زده من هذا الأدب ، فلن يَهْجوَك بعدها أبداً .

* * *

فقال له القاضى : قد سمعتُ ما عزتْكَ إليهِ ، وتوَعَّدتك عليْه ، فجانِبْ ما عَرَّكَ ، وحاذِرْ أن تُفرَكَ ، وتُعرْك ، فجَثَا الشيخُ على ثَفِناته ، وفجَّر يَنْبُوع نَفثاتِهِ ، وقال :

اسمَعْ عَدَاكَ الذَّمُّ قولَ امرئٍ يُوضِح فيما رابَها عُـذْرَهْ
واللهِ ما أعرضتُ عنهـا قِلًى ولا هَـوَى قلبِي قَضَى نَذْرَهْ
وإنَّما الدَّهْرُ عَـدَا صَرْفُهُ فابـتَزَّنا الدُّرَّة والذَّرَّهْ
فمنزِلِى قفرٌ كَمَا جيـدُها عُطْـلٌ من الجِزْعةِ والشَّذْرَهْ
وكنت من قَبْلُ أرى فى الهَوَى ودِينِـهِ رأىَ بنى عذرهْ

فمُذْ نبـــا الدَّهْرُ هجرتُ الدُّمَى هِجرانَ عفٍّ آخـــذٍ حِذْرَهْ
وملتُ عن حَرْثِى لا رغبةً عنـــه ولـكن أتَّقِى بَذْرَهْ
فلا تَلُمْ مَنْ هـــــذهِ حالُه واعطِف عليهِ واحتمِلْ هَذْرَهْ

* * *

قوله عَزَتْك، أى نسبتك. توعّدتك: هدّدتك. عَرَّك: شانكَ وعابك ولطَّخك بشرّ وساءك، وعرّ فلانٌ قومَه بشرّ: لطَّخهم به. حَاذِرْ: خف. نُفُرَك: تُبْغِض، وفَرِكتِ المرأة زوجَها: أبغضته. وتُعْرَك: تُدْلك دَلْكاً شديداً مثل دلك الأديم، وعركتُ القوم فى الحرب قاتلتُهم. جَثَا يجثو جَثْواً وجِثيًّا: جلس على رُكبتيه. التَّفِنات: ما وَلِى الأرض من أعضاء البعير وغَلُظ؛ إذا برَك على الرُّكْبتين والكِرْكرة. يَنْبوع: ماؤها النابع. نَفَثاته: كلماته. عَدَاك: تجاوزك. يُوضح: يُبيّن. رابَها: شكَّكها وأدخل عليها الرِّيبة. أعْرَضْت: صَدَدْت. قِلًى: بغض. هَوَى: حبّ. النذر: أن ينذر الإنسان على نفسه شيئاً يفعلُه، وقضى نحبَه: استوفى غَرَضه. عَدَا: ظلم. صَرْفه: تصرّفه بالإنكاد. ابتزَّنا: سلبنا. الدُّرّة: اللؤلؤة. والذَّرّة: اللبن، ومالُ العرب الإبل، وعيشهم من لبنها، فلهذا جنَّس بالذَّرّة مع الدّرة. جِيدها: عنقها. عُطْل: خال. الجِزْعة: خَرَز يمانىّ، وهى التى فيها بياض وسواد. والشَّذر: قطع من ذهب، يفصل بها بين الجواهر، وقيل: الجِزْع: خرزٌ مُلوّن، والشَّذْر: خرز أخضر، وقيل: الشَّذْرة: القطعة من الذّهب تُلْتَقط من المعدن من غير إذابة الحجارة.

بنى عذْرة، قبيلة بغلب على قلوبهم حبّ النساء، فكلّ مَنْ أفرط فى حبهنّ قيل له: عُذرِىّ، فنسب إليهم. وسُئِل أعرابىّ، فقيل له: من أين أنت؟ فقال: من قبيلةٍ إذا أحبُّوا ماتوا، فسمعته جارية، فقالتْ: عذرِىّ وربّ الكعبة.

قوله: نبا، أى ارتفع وزال خيرُه. الدُّمَى: النّساء المشبهات فى بياضهن وصفائهن بصُوَر الرّخام، وكان العاشق من العرب إذا غلب عليه العِشْق

والهَجْر ذهب إلى الأمصار فاشترى صُورةً من رُخام على صورة محبوبته ؛ فإذا ركب بعيرَه أجلس الصُّورة بين يديه يحدّثها ، ويستريح إليها ، فسمّوا النساء دُمًى تشبيهاً بصور الرخام . عفّ : عفيف . البَذْر : ما يزرع فى الأرض من الحبوب ، وحَرْثه نكاحه ، وأراد بالبذْر مايزرعه فيها من النُّطفة . هَذْره : هذيانه ، وكلامه الفارغ .

* * *

قال : فالْتَظَتِ المرأة من مَقَالِه ، وانْتَضَتِ الْحِجَجَ لجِدَالِه ، وقالت له : ويلك يامرقعان ! يا مَنْ هو لاطعامٌ ولاطِعان ؛ أتضيق بالولد ذَرْعًا ، ولـكلّ أكولةٍ مَرْتَعًا ؛ لقد ضلّ فهمُك ، وأخطأ سَهمُك ، وسفِهَتْ نفسُك ، وشقِيتْ بك عِرْسُك .

فقال لها القاضى : أمّا أنتِ فلو جادَلْتِ الخنساء ، لا نْثَنَتْ عنكِ خَرْساء . وأمّا هو فإن كانَ صَدَق فى زعمه ، ودَعْوى عُدْمِه ، فَلَهُ فى همٍّ قَبْقَبه ، مايَشْغَلُه عن ذَبْذَبِه . فأطرقَتْ تنظر ازوراراً ، ولا تَرْجع حِواراً . حتى قلنا قد راجعها الخَفر ، أو حاقَ بها الظفر . فقال لها الشيخ : تَعْساً لكِ إن زَخْرَفْتِ ، أو كتمتِ ما عَرَفْتِ . فقالت : وَيْحك ! وهل بعد المنافرة كَتْم ، أو بَقِيَ لنا على سرٍّ ختْم ! وما فينا إلاّ مَنْ صَدَق ، وهنك صَوْنَه إذْ نَطَق ، فليتنا لاقينا البَـكمَ ، ولم نَلْق الحَـكمَ ، ثم التفتت بوشاحِها ، وتباكَتْ لافتِضاحِها ، وجعل القاضى يَعْجَب من خَطْبهما ويُعَجّب ، ويلوم لهما الدّهرَ ويُؤَنّب ، ثم أخْفَر من الورِق أُلْفَيْز ، وقال :

أرضيا بهما الأجوَفين، وعاصِيا النازغَ بين الإلفين، فشكراه على حسن السَّراح، وانطلقا وهما كالماء والراح.

* * *

التظَت : حَقَدَتْ والتهبت غيظاً. وانتضت : جَرّدَتْ : جِداله : خصامه. مَرْقعان : كثير الرّقاعة، والرّقاعة كالحماقة، كأن عقله تخرّق فرُقِّع. وضِقْت بالشيء ذرعاً، إذا لم تقـدر عليه. ضَلّ : تحيّر. عِرسك : زوجُك. جادلت : خاصمت. انثنت : رجعت. خرساء : بكماء. زَعْمه : ما ادّعاه. قوله : قبقبه، القَبْقَب : البطن، والقبقبة : الصوت الّذى يدور فيه، فسمِّىَ به.

والذّبذب : الذّكر، وأصل الذبذبة الاهتزاز والاضطراب، فسمِّىَ الذّبذبَ لحركته. وَنَظَرَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى شابّ، فقال : يا شابّ إن وُقيتَ شرّ ثلاث، وُقيتَ شرَّ الشَّباب: لقلقك، وذبذبك، وقبقبك. الأصمعىّ: اللقلق : اللّسان، والقبقب البطن، والذبذب : الذكر.

قوله: أطرقتُ، أى سكنت مميلةً إلى الأرض رأسها حياء. ازوراراً : مَيَلانا. والحِوار : مراجعة الكلام. الخفَر : الحياء. حاق : لحِق. والظَّفَر هنا : غلبة حُجَّتِها وظفرها به. تعساً : هلاكاً. زَخْرفت هنا : زيّنَت الباطل. المنافرة : المحاكمة. خَتْم : ربط، أى قد أظهرنا جميع أسرارنا. هَتَك : خرق. صونه : صيانته. لاقينا البَكَم، أى أصابنا البَكَم وخلقنا خُرْساً، فلم نبد ما أبديناه من القبائح، والبَكَم : الخرَس مع عىّ. وقال ثعلب: البَكَم : أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكُم بَكَماً وبَكاماً. والحكَم: الحاكم. التفَت: التفّت. والوشاح : الثوب، وقد توشحت بثوبها، جعلته موضع وشاحها. لافتضاحها : لاشتهارها بالقبائح. خَطْبهما : أمرهما. يعجّب : يجعل غيره يُعجَب منـه. يؤنّب: يوبّخ ويلوم. الورِق : الدراهم. الأجوفين : البطن والفرج. النازغ : الماشى بالشرّ المفسد، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ نزغاً، أغوى وأفسد. والإلفين :

الصاحبين . السَّراح : الانصراف . والرّاح : الخمر ، وهى سريعة الامتزاج مع الماء ، فيُضْرَب بهما المثل فى امتزاج نفوس المتحابين .

وقد جاء من ذلك فى الشّعر ما يُستحسن ، قال ابنُ أَبى فَنَن : أَحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف :

ما أَنسَ ما أَنسَ يُمْنَاها معطَّفةً ... على فؤادى ويُسراها على رَاسِى (١)

وقولها : ليته ثوبٌ على جَسدى ... وليتنى كنتُ سِرْبالا لعباس

أَوْليتَه كان لى خمراً وكنت له ... من ماء مزنٍ فكنا الدَّهْرَ فى كاس

قال الحاتمى : وأَحسن دعبل كل الإحسان فى قوله :

الله يعلم والأيام دائرةٌ ... والمرء ما بين إيحاش وإيناس (٢)

أَنى أُحبُّكِ حبًّا لو تضمّنَهُ ... سَلْمى سمَّيك ذكّ الشاهقَ الرّامى (٣)

حبًّا تلبّس بالأحشاء وامتزجا ... تمازُج الماء بالصَّهْبَاء فى الكاس

وقال البحترى فأحسن :

تهتزُّ مِثْلَ اهتزازِ الغصن حرّكه ... مُرُورُ غيثٍ من الوَسمىّ سَحَّاحِ (٤)

إنى وَجدتك من قلبى بمنزلةٍ ... هى المصافاةُ بين الماء وَالرّاحِ

* * *

وطفق القاضى بَعْد مَسْرَحِهما ، وتنَأَى شَبَحهما ، يُثْنى على أَدَبِهما ، ويقولُ : هَلْ من عارفٍ بهما ؟ فقال له عينُ أعوانه ، وخالصةُ خُلْصَانِه : أما الشيخ فالسَّرُوجىّ المشهودُ بفضلِه ، وأمّا المرأةُ فقعيدة رَحْلِه ، وأمّا تَحَاكُمهما فكيدةٌ من فِعْله ، وأُحْبُولَةٌ من حَبَائل خَتْله ،

(١) ديوانه ١٥٦
(٢) ديوانه ٩٤
(٣) سلمى أحد جبلى طيىء .
(٤) ديوانه ٤٤٢

فأحفظ القاضىَ ما سمع ، وَتلهَّبَ كيف خُدِع . ثم قال للواشى بِها : قُمْ فردَّ هما ، ثم اقْصِدْهما وصِدْهما . فنهض ينفض مِذْرويه ، ثم عاد يَضْرب أَصْدَرَيْه . فقال له القاضى : أظهِرْنا على ما نبَشتَ ، ولا تُخْفِ عَنَّا ما استَخبثت . فقال : ما زلتُ أستقرِى الطرق ، وأستفتح الغُلَق ، إلى أن أدْرَكتُهما مُصْحِرَيْن ، وقد زمَّا مَطِىّ البين ، فرغَّبتهما فى العَلل ، وكفلت لهما بنيلِ الأمل ، فأشرِب قلبَ الشيخ أنْ ييأس ، وقال : الفِرار بقُرابِ أكيس ، وقالت هى : بل العوْد أحمد ، والفَروقة يَكْمَد .

* * *

قوله طَفِق ، أى جعل . مسرحهما : انصرافهما . تنائى شبحهما : بُعد شَخْصهما . وعين الأعوان : مقدّمهم . والخُلْصان : الأحباب . وخالصة : خيار ، فكأنه خيار خيارهم . قعيدة رَحْلِهِ : زوجته وصاحبة بيته . مكيدة : مكر . أحبولة : شبكة . ختْله : خداعه . أحفظ : أغضب . تلهف : تندّم فصاح : يا لهفى ! . رُدّهما : اطلبهما . مِذْرويه : أطراف أليتيه . والأصدران : عرقان فى الصُّدغين ، وقيل : هما المنكبان ، وقيل : العطْفان ، ويقال : أتى فلان ينفض مِذْرَوَيْه ، إذا جاء غاضباً يتهدّد . ويَضْرب أصدريه ، إذا جاء فارغاً بلا حاجَة ، فإذا قضى حاجته قيل : جاء ثانياً من عنانه . وقال الحسن البصرىُّ ، ورأى الناسَ يوم عيد يضحكون ، فقال : تلقَى أحدَهم أبيض بضًّا يملُخ فى الباطل مَلْخاً ، ينفض مِذْرَوَيْه ، ويضرب أصدريه ، يقول : ها أنا ذا فاعرِفونى ، قد عرفتك ، مقتَك الله ، ومقتك الصالحون . يملُخ : يلجّ ، وقيل يتثنّى ويتكسّر . استخبثت : أصبته خبيثاً . أستقرى : أتتبع . الغُلُق : جمع غُلْقة ، وهى المغالق التى تسَدّ بها الطرق وغيرها ، وباب غلِق ، أى مغلَق . مصحرين : ذاهبين فى

الصحراء . زَمًّا : شدّا . والْبَيْن : الفراق . والعَلَل هنا : العطاء . كَفَلْت : ضمنت . نيل الأمل : درك الحاجة . أشرب : دوخل وألقى فى نفسه ، والفِرار بقُراب أكيس ، مثـــل ، وقُرَاب الشىء : ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكْيَس من الرّجوع إلى الطمع ، ويروى: الفرار بقِراب، بكسر القاف، وهو مصدر بمعنى المقاربة ، والمثل لجابر بن عمر المازنى ، وكان سائراً فى طريق ومعه أوْفَى بن مطر وشهاب بن قيس، فتراءى آثار رَجُلين معهما فرَسان وبعيران وكان قائفاً فقال : أرى آثار رَجُلين شديد كَلَبُهما ، عزيز سَلَبُهما ، والفِرار بقُرابِ أكيس ، ثم مضى هارباً ، والمعنى: فرارنا ونحن بقرب السّلامة خير لنا من أن نتورّط فى المكروه . والْعَوْد أحمد ، أى أوفق وأحق أن يوجد محموداً ، والْعَوْد أحمد مثل ، أى الرجوع أحسن ، وقال المرقش :

وأحسن فيما كان بينى وبينـه ... فإن عاد بالإحسان فالعوْد أحمـدُ

وأنشد أبو الحسن لعمارة :

بنى دارم إن يفن عُمْرى فقد مَضَى ... حياتى لكُمْ منى ثناءٌ مخـــلَّدُ[1]

بدأتمْ فأحسنتم وأثنيت جاهداً ... وإن عدتُمُ أحسنتُ والْعَوْد أحمدُ

قوله : الفَروقة ، أى الفزّاع الكثير الْفَرَق وهو الخوف . يكمَد : يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه . تبيَّن : علم . غَرَر : خطر .

* * *

فلمّا تبيَّن الشيخ سَفَه رأيها ، وغَرَرَ اجترائها ، أمسك ذَلاذِلها ، ثم أنشأ يقول لها :

دونَكِ نُصْحى فاقتفى سُبْلَهْ ... واغْنَىْ عن التفصيل بالجُمْلَهْ

طيرى متَى نفَّرْتِ عن نَخْلَةٍ ... وطلِّقيها بَتَّة بتْـــلَهْ

(١) الكامل — بشرح المرصفى ١ : ١٢٩

وحاذِرى العَوْد إليها ولوْ سبَّلَها نَاطُورُها الأبْلَهْ
خيـــر ما لِلّص ألاَّ يُرَى بِبُقعَةٍ فيهـــا له عُمْلَهْ

* * *

سَفَه : خفة ، والسفيه : الخفيف العقل . اجترائها : جسارتها وجرأتها . ذلاذلها : أطراف ثوبها، وذلاذل القميص : ما يلى الأرض من أسافله ، الواحدُ ذُلْذُل مثل قُمْقُم وقَمَاقِم . دونك : معناه قاربك ما تطلب فتناولْه . اقْتَفِى : اتبعى . سُبْله : طرقه . نَقَّرتِ : أكلتِ ثمرتها بمنقارك ، وهو مثل ، ونقّرت أيضاً : بحثت ، والتَّنقير : البحث عن الشىء ، يقول : متى ما أخذتَ من ثمر نَخْلة بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها ، وفى حديث أبى سعيد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « خلقت النَّخْلة والرَّمانة والعِنب من فَضْل طينة آدم عليه السلام »، والبتّة البَتْلة : التى لا رجعة فيها ، والبتُّ : القطع . سبَّلها : طرَقها وأصله لابن السبيل . الناطور : حارس النّخل خاصة ، بطاء غير معجمة ، وقيل : هو حافظ الكرْم ، والجمع النّواطير . الأبله : الكثير الغفلة . اللّصّ : السارق . وعُمْلة : سَرِقة وفَعْلة قبيحة .

* * *

ثم قال لى : لَقَدْ عُنّيت ، فيما وُلِّيت ، فارْجع من حَيْث جِئْتَ ، وقل لِمُرْسِلِك إنْ شئت :

رُوَيدك لا تُعقِبْ جميلَك بالأذى فَتُضْحِى وشَمْلُ المالِ والحمْدِ منصدِعْ
ولا تتغضّبْ مِنْ تزيُّدِ سائلٍ فما هو فى صَوْغ اللّسان بمبتدِعْ
وإن تَكُ قَدْ ساءتْكَ مِنِّى خَدِيعَةٌ فقبْلَكَ شيخُ الأشعريِّينَ قد خُدِعْ

فقال له القاضى : قاتله الله ! فما أحْسَنَ شجونَه ، وأملح فنونَه !

ثم إنه أَصْحَبَ رائدَه بُرْدَيْن، وَصُرَّةً مِنَ الْعَيْن، وقال له : سِرْ سِيْرَ من لا يَرَى الالتفات، إلى أنْ ترى الشيخ والْفَتاة، قبُلّ يديْهما بهذا الحِباء، وبيِّن لهما انْخِداعى لِلْأُدَباء .

قال الرّاوى : فلم أرَ فى الاغتراب ، كَهَذا العُجاب ، ولا سمعتُ بمثله مِمّن جَالَ وجَاب .

* * *

عُنيِّت : تعبت . وُلِّيت : كُلِّفت . رُوَيدك : رفقك ، أى أوْلِنَا منك الرِّفق والمهل . لا تُعقِب : لا تَتْبَع . الأذَى : الضّرَر . وشَمْل : جَمْع . منصدِع : متفرّق . صَوْغ اللسان : كذبه وحِيَله ، وفى الحديث « هذه كذبة صاغها الصوّاغ »، أى اختلقَها الكذّاب . مُبْتَدِع : أوّل فاعل . ساءتك : أحزنتك .

شيخ الأشعريين ، هو أبو موسى الأشعرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبدالله بن قيس ، من ولد الأشعر بن أُدَد بن زيد بن يشجب ابن يَعْرُب بن كَهْلان بن سبأ ، قدم مكة وأسلَم بها ، ثم هاجر إلى أرض الحبشة ، ثم قدم مع جعفر بن أبى طالب إلى المدينة ، والّذى خدعه هو عمرو بن العاص فى قصّة التحكيم بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما ، وهى قصّة مشهورة فى كتاب العقد وفى كتاب المسعودى وغيرهما من كتب الأدب، وفيهما أشياء منَاكير فى حق الصحابة رضى الله عنهم ، فلذلك أضربنا عن ذكرها .

رائده : طالبه . أصحبه : جعله فى صُحْبته . بُرْدين : ثوبين : صُرَّة : خرقة شُدّ فيها الدراهم . العين : الذهب والفضة . سير من لا يرى الالتفات ، أى سيراً سريعاً لا يلتفت معه إلى مهمّ . قوله : بلّ أيديهما ، يقال : بللت به أبلّ إذا ظفرت به ، وبلّك الله بابن ، أى رزقكه ، وفى الحديث : « بُلُّوا أرحامكم ولو بالسّلام » أى صِلُوها ، وبَلَلْت رَحِمى أبُلّها بللاً وبِلالاً ، إذا نديتَها ووصلتَها . الحِباء : العطاء . جال : تصرّف وقطع البلاد بالمشى .

# المقامة السادسة والأربعون وهي الحلبية

روى الحارث بن همّام قال : نَزَع بى إلى حَلَب ، شوقٌ غلَب ، وطلبٌ يا له مِنْ طلب ! وكنتُ يومئذٍ خفيفَ الحاذ ، حديث النفاذ ، فأخذتُ أُهْبَة السَّيْر ، وخفقْتُ نحوَها خُفُوقَ الطَّيْر ؛ ولم أزل مذ حَلَلْت رُبُوعَها ، وارتبعتُ ربيعَها ، أُفانى الأَيّام ، فيما يشفِي الغرام ، ويُرْوِى الأُوام ؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه ، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه .

* * *

نزَع بى ، أى شوّقنى وحَمَلنى .

[ ذكر مدينة حلب ]

حلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنّسرين ، خمس من أخماس الشام ، ومدينته العظمى حَلَب وساحلها أنطاكيَة . وذكرها شيخنا ابن جبير فقال : حلب بلدةٌ قدرها خطير ، وذكرُها فى كلّ زمان يطير ، خُطَّابها من الملوك كثير ؛ كانت فى القديم ربوة فيما يقال ، كان يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغنمه ، فيحلُبها هناك ويتصدّق بلبنها ، فسميت حَلَب ، وبها مشهد كريم منسوب إليه ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، ولها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها

وتدويرها . ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع أنّ الماء بها نابع ، وقد صنع عليها جفان ، والطعام يصير فيها الدهرَ كلَّه ، وليس من شروط الحصانة أهمّ من هاتين الخلّتين ، ويُطِيف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندق بالماء ، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ،وسُورها الأعلى مجلّل ، كله أبراج منتظمة فيها القلالى المنيعة ، قد تفتحت كلّها طبقات ، وكل برج منها مسكون ، والبلد ضخم جدًّا ، جميل الترتيب ، أسواقه متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صَفّة إلى سماط أخرى ، وقيساريتها وجامعها ومدارسها ما سُمع بمثـــل وصفها فى بلد من بلاد الله تعالى ؛ كل سوق من أسواقها مسقّف بالخشب ، يقيِّدُ البصر حسناً ويستوقف المستوفز تعجباً . وقيساريتها حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بجامعها . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ،قد اتّصل السماط كله خزانة واحدة ، وتخلّلتْها شرُف حسنة ، بديعة النقش وتفتّحَت كلها حوانيت ، فجاءتْ فى أجمل منظر ، وكلّ سِماط منها يتّصل بباب من أبواب الجامع .

ثم أخذ ابن جبير فى وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان .

* * *

قوله : يا له ! معناه التعجب كأنه قال : ما أعجبه من طلب : خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وتقدّم الحاذُ فى السادسة . حثيث النفاذ : سريع المضىّ فى أموره ، ورجل نافذ ونَفُوذ ونفّاذ: ماض فى جميع أموره . أُهبة :عدّة . خفّت : ارتحلت بسرعة . حللت ربوعها : نزلت فى بيوتها . ارتبعت ربيعها : التمست خيرَها . أُفانى : أقاطع ، وفنى الشىء ، تم وانقطع . والغرام : عذاب الحب . والأوام : العطش . وأقصر : كف ، وأقصرت عن الشىء : تركتَه وأنت عليه قادر . وَلوعه : مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه . استطار ، بمعنى انتشر . وقوعه : نزوله ، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذِن عندهم بالفراق ، وذلك أنهم لا يرون

الغراب عند منازلهم إلاّ إذا حطُّوا بيوتَهم للرحيل ، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلقَط ، ولذلك سمُّوه غراب البين ، واشتقوا من اسمه الغريب والغُرْبة .

* * *

فأغرانِي البال الخِلْو ، والْمَرَحُ الْخلو ؛ بأنْ أقصد حِمْص لأصْطاف ببقْعَتِها ، وأسْبُر رَقاعة أهلِ رُقْعَتِها ؛ فأسرعْتُ إليها إسراعَ النّجم ؛ إذا انقَضّ للرّجْم ، فحين خيّمتُ بِرُسُومها ، ووجدتُ رَوْح نَسيمها ، لمح طرفي شيخاً قد أقبل هَرِيرُه ، وأدبر غريرُه ، وعند عشرة صِبْيان ، صِنْوانٌ وغيرُ صنوان ، فطاوعْتُ في قصده الحِرْص ؛ لأخبُر به أدباء حِمْص ، فبشَّ بي حينِ وافيتُه ، وحيّا بأحسنَ مِمَّا حَيَّيْتُه ، فجلست إليه لأبْلُوَ جَنَى نُطْقِهِ ، وأكْتَنِه كُنْه حُمْقه ، فما لبث أنْ أشار بِعُصَيَّتِه ، إلى كُبْر أُصَيْبِيَتِهِ ، وقال له : أنشد الأبيات الْعواطل ، واحذرْ أن تُماطل ، فجثا جَثْوةَ ليث ، وأنشد من غير رَيْث . .

* * *

أغرانى : حَرَّضَنى وسَلّطنِي . الخِلْو : الفارغ . المرح : النشاط وخِفّة النفس من الطرب .

## [ ذكر حمص ]

حمص مدينة عظيمة ، بينها وبين دمشق مائة ميل ، وأرض حمص خُمْسٌ من أخماس الشام ، وهى مدينة يقال إن لها سوراً وفى وسطها حصنها ، ولا تدخلها حيّة ولا عقرب ، وأوّل من ابتدع الحسابَ أهلُها ، لأنهم كانوا تجّاراً بإشبيليَة وأحوازها ، نزل أهلُ حمص عند افتتاح الأندلس ، فلذلك سميت حمص ، أخذت من قولهم : حَمَص الجُرْح يحمِص حُمُوصاً ، وانحمص ينحمِص انحماصاً ، إذا ذهب وَرَمُه .

قال اليعقوبى : مدينة حِمْص من أوسع مبانى الشام ، ولها نهر عظيم ، منه بشرب أهلُها ، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وفى حديث عمر رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :« لَيبعثَنّ الله تعالى من مدينةٍ بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم » .

ودخلها شيخُنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسمائة وقال : هى فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النَّظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يتخرّقه النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف دون منتهاه ، وماؤها يجلَب لها من نهرها العاصى ، وهو منها بنحو ميل ، ومنبعه فى مغارة بسفح جبل بمرحلة منها ، بموصل يقابل بَعْلبكّ . وأهل حمص موصوفون بالنَّجدة لمجاورتهم العدوّ ، وأسوارها فى غاية العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة السود ، وأما داخلها فما شئت من بادية شَعْثاء ، خَلَقة الأرجاء لا إشراق لآفاقها ، ولا رَوْنَق لأسواقها ، وما ظنُّك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وتجد فيها عند اطّلاعك عليها بعض شَبَهٍ من مدينة إشبيليَة يقع للحين فى نفسك حبّها ، ولذلك سميت باسمها فى القديم ، ولهذا نزل إشبيليَة بعضُ أعراب حمص .

وقال الفنجديهى : بأهل حمص يضرب المثل فى الحماقة ، وكثرة الرقاعة ، وتنسب إليهم حكايات مضحكة ، حكى عن بعضهم أنه قال : دخلتُها وفى فمى درهم لأشترى به بعض ما اشتهيه ، فإذا برجلٍ بباب الجامع جالس على كرسىّ ، وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قانسوة ، وقد لبس فَرْوة مقلوبة بلا سراويل ، وقد تقلّد بسيف ، وفى حجره مصحف يقرأ فيه ، وعنده كلب رابض يمسكه بِقَوَدَه ، فسلّمت عليه ، فردّ السلام ، وقلت له : أترى القوم صَلُّوا ؟ فقال لى : أو أنت أعمى ! أما ترانى قاعداً ! قلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو خالد إمام الجامع ، فقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : وِرْد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ، ويشتم أبا بكر الصّنادِيق وعمر القواريرىّ وعثمان بن أبى سفيان ومعاوية

ابن أبى غسّان الذى هو من حملة العرش ، وزوّجه النبى ابنته عائشة فى زمن الحجّاج بن يوسف ، فاستولدها الحسن والحسين ، فقلت : ما أعرفك بالمقالة والأنساب ! قال : وما خُفِىَ عنك أكثر ، قلت : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم ، قلت : فاقرأ شيئاً منه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانَ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَىّ لا تَقْصص رُؤْيَاكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً وأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلهم رُوَيْداً » ، فصفعته صفعةً سقطت عمامتهُ ، وبقى التحنّك فى عنقه ، فصاح بالناس : قلنسوتى ! وقال : احملوه إلى المحتسِب ، فأوصلونى إلى رجل حاسر حافٍ ، قد لبس درّاعة بلا سراويل ، فقال : ما صنع هذا ؟ قالوا : صفع إمام الجامع ، قال : يا مسكين ، أهلكْتَ نفسك ، قلت : هذا حكم الله فصبراً عليه ؟ قال : أيّما أحبّ إليك سَمْل عينيك ، أو قطع يدْيك ، أو تدفع نصف درهم ؟ قال : فرفعت يدى وصفعت المحتسب صفعة ، ثم أخرجت الدرهم من فمى ، وقلت : يا سيدى خذ نصف درهم لك ، ونصف درهم لإمامك .

وقال فيهم بعض الشعراء :

لأنّهم أهلُ حمص لا عقول لهمْ بهائم غير معدودين فى النّاسِ

ونزلها فى القديم أهلُ اليمن ، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات ، وكان لهم إمام من مصر ، فغضبوا عليه وعزلوه ، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم :

سمعوا الصلاة على النبىِّ تَوالَى فتفرّقوا شِيَعاً وقالُوا : لَا ، لَا[1]

ثم استمرّ على الصّلاة إمامهم فتحزّبوا ورمَى الرِّجَالُ رجالاَ

يا أهلَ حِمْصَ توقّعوا من عارها خِزْياً يحلُّ عليكمُ وَوَبالاَ

شاهت وجوهكمُ وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالاَ

* * *

(١) ديوانه ١١٠ ، وآخر بيت فى هذه المقطوعة :

إنْ يُثْنَ مَنْ صلّى عليه كرامةً فالله قدْ صلّى عليه تعالَى

قوله : أصطاف ، أى أسكن فى الصَّيف . وأسبر : أختبر . والرّقاعة : تجاوز الحدّ فى الوقاحة وصلابة الوجه . والبقعة : القطعة من الأرض، وكذلك الرقعة . وانقضّ النجم للرجم ، إذا استطار لرجم الشياطين ، وأراد أنه أسرع إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ ، قال خلف الأحمر :

كالكوكب الدّرىّ مبتهلاً سيراً يفوت الطرفَ أسرعُهْ
وكأنما جهدت أليّتُهُ ألّا تمس الأرض أربعُهْ

وقال ابن الرومى :

خذها تَبُوعاً لمن أولى مسوَّمة كأنها كوكب فى إثر عفريتِ[1]

وما أحسنَ قول ابن المعتز فى هذا المعنى :

كأنما النجم والعفريت مسترقاً للسمع ينقضّ يُلْقِى خلفه لهبَهْ
كفارس حلّ من عجَب عمامتَه فردّها كلّها من خلفه عذَبَهْ

قوله : خيَّمت ، أى أقمت ، وأصله ضربت خَيْمة . رسومها : آثارها . روْح نسيمها : لذة ريحها : لمح طرفى : أبصرتْ عينى . هريره : صياحه ، وقد هرّ الكلب هريراً ، إذا نبح وحمل على مَنْ أنكره . وغريره : شبابُهُ ، والغِرَّة : صغر السن ، ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه ، وأدبر صباه وحسن خُلُقه ، ولما كانت خليقته فى هذه المقامة منبسطة مع صبيانه صار هذا التفسير فيه بُعْد . وقال بعضهم : أقبل هريره ، أقبل هَرَمُهُ ويُبْسه ، من هرّ الشوكُ إذا اشتدّ يبُسه حتى صار كأنياب الهرّ ، وهذا يوافق الغرض ، فمعناه أقبل هَرَمه وكِبَرُهُ وأدبر صباه وصِغَرُهُ ، ومثله كالبت الإبل شجر الشَّوك ، إذا رعته كأنها رعت فيه أنياب الكِلاب لصعوبته ، والغرير أيضاً : الضامن ، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طولَ الحياة المفقود معناها فى الهرَم . والصِّنو : الأخ الشقيق ، وأصل الصِّنو فى النخيل والشجر ، وهى التى تجتمع أصولُها وتفترق أجسادها . الحِرْص : الرغبة والطمع .

(١) ديوانه ١ : ٣٧٩

أخبر : أجرِّب : بشَّ . استبشر ، والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه . وافيته . أتيته . جنى نطقه : ما يجنى من كلامه ويحصل منه . أكتنه : أتعرّف وأتحقّق . كنه . قدر وحقيقة . ابن الأنباريّ : الحمق عند العرب الحمر ، ثم أخِذ منه الأحمق وهو المتغيِّر العقل .

[ من نوادر المعلمين ]

فممَّا يحكى من حماقتهم : كان حمزة المعلم متقلْنِساً فأنشد فيه أبو جعفر الحاكم:

أرَى على حمزة المقرِى قلنسوةً عساكر القمل تجرى فى حواشِيهَا
إن المعلّم لا تخفى حماقتُه ولو تقلْنَس بالدُّنيا وما فيها

تقلنس : لبس القلنسوة .

الجاحظ: عَقْل مائة معلِّم عقل امرأة ، وعقل مائة امرأة عقل حائك ، وعقل مائة حائك عقل خصىّ ، وعقل مائة خصى عقل صبىّ ، قال الشاعر :

معلّم صبيان وصاحب درّهْ وليس له عقل بمقدار ذَرّهْ

الفنجديهى : قال أبو طاهر : عقل امرأتين كاملتين عقل رجل ، وعقل أربعة خصيان عقلُ امرأة ، وعقل أربعين حائكاً عقل خصىّ ، وعقل أربعين معلماً عقل حائك .

الزبير بن عبد الملك الهاشمىّ قال: مررت ببعض المعلّمين ويعرف بكسرى ، فرأيته يصلّى بالصبيان صلاة العصر ، فلم أزل واقفاً أفكّر فيه ، فلما أن ركع أدخلَ رأسَه بين رجليه ، لينظر ما يصنع الصبيان خَلْفَه ، فرأى صبيًّا يلعب . فقال له وهو راكع : يا بن البقّال ؛ هوذا ؟ أدرى ما تصنع !

الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبى : « وإذْ قال لقمان لابنه وهو يعظه . يابنىّ لاتَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيدُ

كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» . فقلت : ويحك! أتدخل سورة فى سوره ؟ فقال : نعم عافاك الله ، إن أبا العاصّ بَظْرأمه يدخل أجرة شهر فى شهر ، وأنا أيضاً أدخل آية فى آية ، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبىّ يتعلم شيئاً .

أبو بكر القبطىّ : عبرت على معلم وهو يُمْلِى على غلام بين يديه : «فريق فى الجنة وفريق فى السعير» ، فقلت : يا هذا ماقال الله من هذا شيئاً إنما هو فى السعير ، فقال : أنت تقرأ على حرف أبى عاصم بن العلاء الكسائى ، وأنا أقرأ على حرف أبى حمزة بن عاصم المدنى فقلت: معرفتك بالقراء أعجب إلىّ؛ وانصرفت.

وروى بعض الفضلاء قال : مررتُ فى بعض قُرَى السَّواد ، وَإذا معلم صبيان يقول : وَيحكم ياصبيان، تفسون !فصاح به وَاحدٌ منهم ، وَقال: إنّما فسا أخى ، فقال المعلم : إنى لأعلم فسوته الخبيثة ، وَلكن أُعلِّل نفسى بالأباطيل ، ثم قال : إنى لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتَكمْ ، وَحلف على ذلك ثم أنشد :

معلم صبيان يروح وَيغتدِى على أنفه ألوان ريح فُسَائِهِمْ
وَقد أفسدوا منه الدِّماغ بفَسْوِهم ورفعهم أصواتَهم فى سَحَائِهِمْ

الجاحظ : كان فى المدينة رجلٌ معلِّم صبيان ، يُفرط فى ضربهم ، فلاموه على ذلك ، فساءنى حالُه معهم ، فاستفتح صبىّ ، وقال : يا معلم ، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ، مابعده ؟ فقال : بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى .

وجاء آخر فقال : يا معلم ، اخْرُج منها فإنّك رجيم ، ما بعده ؟ قال : ذاك أبوك الكَشْخان . وجاء آخر ، فقال : يا معلّم مالنا فى بناتك من حقٍّ، ما بعده؟ فقال : لا ولا رأيتهنّ ، فقال : على هذا أضربهم ، أتعذرونى ؟ قلت : نعم .

العتْبى : كان ببغداد معلّم يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه ، فقلنا : يا شيخ ما يحلّ لك أن تشتم هؤلاء الصبيان ؟ فقال : أنا مبتلًى بهم ، ماأشتمُ إلاّ مَنْ يستحقّ الشتم ، فاحضروا حتى تسمعوا بعضَ ماأنا فيه ، فحضرنا

معه ، فقرأ عليه صبيّ : « عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون » فقال : يا ماصّ بَظْر أمه ، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور ، قال : فضحكنا والله حتى بال أحدُنا فى سراويله ، فقرأ عليه آخر : « لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله » وتردّد فقال : من عند أبيك القَرْنَان أولى ، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة ، أتُلْزِم النبى صلى الله عليه وسلم نفقةً لا تجب عليه ؟ أأعجبك كثرة ماله ؟ فقال : فكنت بعد ذلك أترك أشغالى ، وأجلس عنده أتعجّب .

الجاحظ : سرق صبى عثمانىٌّ مصحفاً ، فقال له المعلم : ماذا لقيت المصاحفُ منكم يا آل عثمان ! أبوك أحرقها وأنت تسرقها !

قال أفلح التركى : خرجنا مرّة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أنْ أرى الحرب كيف هى ؟ فأخرجناه معنا ، فأوّل سهم جاء وقع فى رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجاً فنظر إليه ، وقال : إن خرجَ الزّج وفيه شىء من دِماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شىء من دِماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه ، وقال : بشرك الله بخير ، أنزعه فما فى رأسى دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى معلّم كتاب الله تعالى ، وما فى رءوس المعلمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا .

وقال موسى بن حَسّان الكاتب : رأيت بالبصرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشّمس ، وهو يقول لأولاد الأغنياء : يا أهل الجنة ، ابرُزوا على أهل النارِ ـ يعنى أولاد المساكين ـ فقلت : يا هذا ، ما بال هؤلاء يُبْخَسُون ؟ فقال : هؤلاء يبخسون الأخطار .

أحمد بن دليل : مررت بمعلّم يضرب صبيًّا ، ويقول : والله لأضربنّك حتى تقول لى : مَنْ حفر البحر ؟ فقلت : أعزّك الله ، والله لا أدرى أنا مَن حفر البحر ، فقل لى حتى أتعلّم أنا ، فقال : حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام .

أبو العنبس : كان فى دَرْبنا معلّم طويل اللحية ، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلهّى به ، فجئته يوماً وبين يديه صبىّ يقول له : ويلك ! الدجلة من حفرها ! قال : عيسى بن مريم ، قال : فالجبل مَنْ خَلَقه ؟ قال : موسى بن عمران ، قال : فالبعر، مَنْ دوَّره فى است الجملِ ، قال : شيطان يقال له الحىّ ، قال : أحسنت ، فآدم مَنْ أبوهُ . قال : نوح ، قال : بخ بخ ، نجوت والله ! فقلت : يا سبحان الله ! أليس آدم أبا البشر ! قال : نعم ، قلت : فكيف يكون نوح أباه ! قال : ويلك أتعرّفنى بآدمَ وأنا أبو عبدالله المعلم ، يا صبيان كرّفسُوه فكرفسونى ، حتى صيّرونى مقيَّداً ، فحلفت ألاّ أقف على معلم أبداً .

الجاحظ : أتت امرأة إلى معلّمٍ بابن لها ، وكان المعلّم طويل اللحية ، فقالت : إن هذا الصبى عاقّ لا يطيعنى فأحبّ أن تفزّعه ، فأخذ المعلم لحيته وألقاها فى فمه وحرّك رأسه ، وصاح صيحة ، فضرَطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت لك: فزّع الصبى، ليس إياى ، فقال لها : مرّى ياحمقاء إن العذاب إذا نزلَ هلك الصّالح والطالح .

الأصمعى : مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيًّا ، ثم أقام الصبيان صفًّا ، وجعل يدُور عليهم ، ويقول : اقرءوا ، فلما بلغ الصبىَّ المضروب ، قال لآخر إلى جنبه : قل له : يقرأ فإنى لا أكلمه !

## [ فصل فى التأديب والأدباء ]

ونذكر هنا فى التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع ، ثم نتبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجرى كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى .

قالت الحكماء : من أدَّب ولده صغيراً مُرّبه كبيراً ، ومن أدَّب ولده أرغم حاسده .

وقال ابن عباس : مَنْ لم يجلس فى الصغر حيثُ يَكْره ، لم يجلس فى الكبر حيثُ يحبّ .

وقالوا : أطبعُ الطّين ما كان رطباً ، وأغرز العُود ما دام لدنا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر ، والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء » .

وسمع الأحنف : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، فقال : الكبير أكبر عقلاً ، ولكنه أشغل قلباً .

وقال على رضى الله تعالى عنه : قلْب الحدَث كالأرض الخالية إذا أُلقِيَ فيها شىء قبِلته .

وقالوا : نشاط الألباب فى عصر الشباب ، والسّوَدَد مع السواد ، وشواظ النار قبل الرّماد .

وقال الشاعر :

إنّ الغصون إذا قوّمتَها اعتدلتْ ولن تَلين إذا قوّمتَها الخُشُب

وقال آخر :

إنّ الكبير إذا تناهى سِنُّه أعيت رياضته على الرُّوّاضِ
فإذا دفعت إلى الصغير فإنما تكفيك منه إشارةُ الإيماضِ

وقال آخر :

* ومن العناء رياضة الهرِم *

وأنشدوا :

* أبعد شيبك هذا تبتغى الأدبا *

وقال الشاعر فى تدريج الصبى برفق :

سَدِّد مرامِى الطفلِ فى شَأْنه ... بلفظةٍ تَشْدُدْ بها أَزْرَهْ
واغتنم اللمحةَ من فَهْمِه ... إن المبادى أبدا نَزْرَهْ
كما تربَّى النّارُ من شعلةٍ ... والذّوحة الغناء من بَذْرَهْ

وهذا ضدّ ما قال المعرى :

لايستوى ابناك فى خَلْقٍ ولا خُلُقِ ... إن الحديدة أمّ السّيف والجَلَمِ
فاضرب وليدَك وادلله على رشدٍ ... ولا تقل هو طفل غير محتلِمِ
قربّ شق برأس أجرّ منفعةً ... وعس على نفع شق الرأس بالقلم

أشار إلى قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ .

وقال صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَنْ أدّبْتَه فى الصّبا ... كالعود يُسْقَى الماء مِنْ غَرْسِهِ
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعدالذى أبصرتَ من يُبْسِهِ
والشيخ لا يترك أخلاقَه ... حتى يوارَى فى ثَرَىَ رمْسِهِ
إذا ارعوى عاوده جهلُه ... كذى الضنى عاد إلى نكْسه
ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ... ما يبلغ الجاهل من نفسِه

وقال عتبة بن أبى سفيان لمعلم ولده : ليكن أوّل إصلاحِك لولدى إصلاحُك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسَن عندهم ماصَنَعْت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علِّمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولاتتركهم فيه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحْكِموه ، فإنّ ازدحام الكلام فى السّمع مشغلة فى الفهم ، وعلِّمهم سير

الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وهددهم فى أدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدّواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، واستزدنى بزيادتك إيّاهم أزدْك فى برّى ، وإياك أن تتّكل على عذر منّى ، فقد اتّكلت على كفاية منك لى .

وأوصى الرّشيد مؤدّب ولده الأمين ، فقال : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضَعك أمير المؤمنين ، أقرِئه القرآن ، وعرّفه الآثار ، وروِّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره مواقع الكلام ، وامنعه الضحكَ إلا فى أوقاته ، ولا تمرر بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدّة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

وقال للأصمعىّ : يا عبد الملك ، أنت أعلم منّا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلِّمنا فى ملا ، ولا تسرع بتذكيرنا فى خلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق ، فلا تزد إلّا أن نستدعىَ ذلك منك .

الماوردى : إذا كان لبعض الملوك رغبة فى العلم ، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال . وكتب شُريح إلى معلم ولده :

تَرَكَ الصَّلاة لأكْلُبٍ يسعى بها ... يبغى الهِراش مع الغُوَاةِ الرُّجَّسِ (١)
فإذا هممت بضربه فبدِرّة ... وإذا بلغت به ثلاثاً فاحْبِس
وإذا أتاك فعضّه بملامة ... وعظنّه موعظةَ الأديب الأكيس
واعلم بأنّك ما أتيت فنفسه ... مع ما يجرّعنى أعزُّ الأنفس

(١) العمدة لابن رشيق ١٧

[ فنّ آخر فى المتهمين من المعلمين ]

اتصل حمّاد عجرد بالربيع يعلّم ولده ، فكتب إليه بشار :

يا أبا الفضـــل لا تنمْ وقع الذئب فى الغنمْ
إنّ حمـــــاد عجردٍ إن رأى غفلةً هَجَمْ
بين فخذيه حَرْبَةٌ ن غلافٍ من الأدَمْ
إن خلا البيتُ ساعةً تجمَّـــــع الميمُ بالقلَمْ

فطرده الربيع .

واتخذ المهدىّ قطرباً لتأديب بعض ولده ، وكان حماد يطمع فى ذلك ، فلم يتم له لتهتُّكه وشهرته فى الناس بما قال بشار ، فلما تمكن قطرب من موضعه ، صار حماد كالملغى ، فجعل يقوم ويقعد قلقاً ، ثم دسّ إلى المهدى رقعةً فيها :

قل للإمام جـــزاك الله صالحةً لا تجمع الدهرَ بين السَّخْلِ والذِّيبِ
السخل غِرّ وهمّ الذئب فرصتـــه والذئب يعلم ما فى السَّخْل من طيبِ

فقال المهدىّ : انظروا لا يكون هـذا المؤدب لوطياً ، ثم أخرجوه من الدار ، فبعث الضجر حماداً حيث حَرَمه بشّار هذه المراتب إلى أن قال فيه :

لقد صار بشارٌ بصـــيراً بدبره وناظره بين الأنام ضريرُ
له مقلةٌ عمياء وآستٌ بصـــيرة إلى الأيْر من تحت الثياب تشيرُ
على ودّه أن الحمـــير تنيكهُ وأنّ جميع العـــالمين حمير

وقال فيه :

ألا مَنْ مبلغ عنى الـــذى والـــده بُرْدُ

إذا ما ذُكر النـــاس فلا قَبْـــلٌ ولا بَعْدُ
وأعمى يشبه القـــرد إذا ما عمى القـــردُ

وقال فيه :

دُعِيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغـــيره
وهبك ابن برد نكت أمَّكَ من بُرْدِ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لُوطيًا زنديقًا ، وكان سعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميلَ الوجه شاعراً ، فدخل على عبد الصمد فراوده فى نفسه فسبَّه ، وخرج مغضباً ، فدخل على هشام بن عبد الملك ، وهو يقول :

إنّه والله لولا أنت لَمْ ينجُ منى سالمًا عبد الصَّمَدْ

فقال هشام : ولم ؟ قال :

إنه قد رامَ مـــنى خُطَّةً لم يَرُمْها قبله منى أحـــدْ

قال : وما هى ؟ قال :

رامَ جَهْلًا بى وجهـلًا بأبى يُدخل الأفعى إلى غيل الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك .

وكان سعيد يومئذ صغيراً فى المكتب ومؤدّبه عبد الصمد هذا ، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع فى الكناية ، ورقّق هذا المنكر الأكبر بلفظ يقابل به خليفةً ، وغاية ذوى الخُنْكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته ، وليس ببدع ، فهو من بيت ثلاثة شعراء فى نَسَق ، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء .

قوله : مالبث ، أى ما أقام ولا تأخّر . كبر أصيبيته ، أى أكبرهم ، وكُبْر ولد الرجل أكبرُهم من الذّكور ، وكبر قومه : أقعدهم فى النَّسب ، أى أقربهم إلى الجدّ الأكبر ، ومنه قيل : الولاء للكبر . أصيبيته تصغير أصبية . قال الجوهرى : الصبىّ : الغلام ، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو ، ولمّا لم يقولوا : أصبية ولا أغلمة استغنوْا عنهما بصبية وغلمة ، وجاء فى الشعر أصيبية . وقال سيبويه : تصغير صِبْية أصيبِيَة ، وتصغير أَصْبِيَة صبيَّة وكلاهما على غير قياس .

ابن سيده : عندى أن صبية تصغير صبيّة وأصيبية تصغير أصبية، ليكون كل شىء منهما على بناء مكبره .

العواطل : التى لا نقطَ فيها . تماطل : تؤخر إنشادها . جثّا : برك . ليث : أسد . ريث : بطء وتأخير .

* * *

أَعْدِدْ لحسّادِك حدّ السَّلاخْ ... وَأَوْرِدِ الآمِلَ وِرْدَ السَّماخْ

وصارِمِ اللَّهْوَ ووصْلَ المَها ... وأَعْمِلِ الكومَ وسُمْرَ الرِّماخْ

واسْعَ لإدراكِ محــلٍّ سَمَا ... عمــادُه لا لادّراعِ المِراخْ

واللهِ ما السؤدد حَسْوُ الطِّلا ... ولا مَرَاد الحمد رؤْدٌ رداخْ

واهًا لُحرٍّ واسعٍ صــدره ... وهَمُّه ما سرَّ أهلَ الصَّلاَخْ

موردُهُ حُــلْوٌ لسؤّاله ... ومالُه ما سألوهُ مُطاَخْ

ما أسمَــع الآملِ ردًّا ولَا ... ماطَلَهُ والمَطْلُ لُؤْمٌ صُرَاخْ

ولا أطاعَ اللَّهْــوَ لمَّا دعا ... ولا كَسَا راحًا له كأسَ راخْ

سوّده إصلاحُـــه سِرَّه وردْعُه أَهواءه والطِّمَاحْ
وحصَّل المـــدحَ له عِلمُهُ ما مُهِر العُورُ مهور الصِّحَاحْ

* * *

أورد الآمل ، أى أعطِ الراجى . ورد السماح : ماء الكرم . صارم : قاطع . المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية ، وأراد النساء . الكُوم : جمع كَوْماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . اسع : اجر مسرعاً . محلّ سما : منزل ارتفع . والعماد : قائمة الخِباء وإذا علت علا البيت . ادّراع : لبس الدّروع . والمِراح : الطرب والنشاط ، كأنه يقول : لا تشتغل باللهو واشتغل بكسب الشرف . حسو الطِّلا : شرب الخمر . السُّودَد : الفعل الذى يرجع به فاعله سيّداً . مَراد ، بفتح الميم : مذهب وطريق ، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى . رُود : جارية ناعمة شابة . والرّدَاح : العظيمة العَجزُ ، وهو كما قال أبو نواس :

لئن خُلِق الأنام لحب كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعُـــودْ
فلم يُخلق بنو حمـــــدان إلّا لبأسٍ أو لمجـــد أو لجودْ

واهاً : عجباً . ما : بمعنى الذى . مطاح : هالك بالعطاء . صراح : ظاهر . راحاً : كفًّا . راح الثانى : خمر . سؤدده : شرفه ، وجعله سيّداً . سرّه : باطنه . ردعه : كفه . أهواءه : شهواته . والطماح : ارتفاع النظر . العُور : جمع عَوْراء ، وهى الفاقدة إحدى عينيها . مهور : جمع مهر ، وهو الصداق ، وأهمل علمه فيما بعده من الكلام ، وضرَب العور والصحاح مثلًا للأفعال الجميلة والذميمة ، فأراد أن تمييزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء ، جعل ممدوحاً سيداً . ومثل هذا الشعر الذى لم ينقَط ما أنشد أبو القاسم الزجاجى لأحمد بن الورد :

علم العـــدوّ ملامة اللوّامِ ودوام صدّك وهو صَدٌّ حمام
لولاك ما حَدَر السهاد دموعَه ولما أطار كراه حَرّ أُوامِ
هل ما أسرّ وما أؤمّل رادعٌ هول الهموم وروْعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلّماً ورآك أهلُ هواك سرّ كلام
كم حاسد لك أو مسرٍّ وداده ومعلّل أهـواه طول ملامى

وهى قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارَهم فى هذا الفن ، إلّا أنه قَلَّما يقع فى ذلك بيت مستحسن ، فلذلك تركنا أن نمشىَ مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها ، وقد أكثر الناس القول فى ذلك ، وفائدته أن يقال : قدَر على لزوم مالا يلزم لا أن يقال : قد أحسن فيما قال ، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً ، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاه ، منها :

أتيناك يا جَزْل العطية إننـــا رأيناك أهلاً للعطايا الجزائلِ
عقيل النَّدى يا حار عـدنا عقيلةً نعـدك انتجاعاً للحسان العقائلِ

* * *

فقال له : أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر ، يا رأسَ الدَّيْر ، ثمّ قال لِتِلْوه ، المشتبِه بِصِنْوِه : ادْنُ يا نُوَيْرَهَ ، يا قَمَر الدُّوَيْرَة ، فدنا ولم يَتَبَاطَأ ، حتّى حلّ منه مَقْعَدَ المُعَاطَى ، فقال له : اجْلُ الأبياتَ العَرائس ، وإن لم يكُنَّ نفائس ، فبرى القَلَمَ وقَط ، ثمّ احتجرَ اللَّوْح وخطّ :

فَتَنَتْنِي فَجَنَّنَتْنِي تَجَـــنّى بتجَنٍّ يَفْتَنُّ غِبَّ تَجَنِّى
شغفَتْنِي بجفنِ ظبي غَضيضٍ غَنِجٍ يَقْتَضِى تَغَيُّضَ جَفْنِي
غشيَتْنِي بزينتيْنِ فَشَفَّتْـــنِي بِزِىٍّ يشِفُّ بين تَثَنِّى

فتظنَّيتُ تَجْنِبِي فَتَجَزِ نِي بِنَفْثٍ يَشفِي نَحِيبَ ظَنِّي
ثبَّتتْ فىّ غشَّ جيبٍ بتَزْيِيـــنٍ خبيثٍ يَبْغى تشفِّىَ ضِغْنِ
فنزت فى تَجَنِّبِي فَثَنَتْنِي بنشيجٍ يُشْجِى بِفَنٍّ فَفَنِّ

* * *

قوله : أحسنت يا بدير : تَصغير بَدْر ، صغَّره لصغر سنه ، على أنه قد زَعَم أنه كبير صبيانه . وفى مثل هذا البدر الذى قد نثر هذه الدرر قال الشاعر :

دُرَّانِ من فَمِهِ شَفَّا محـــدِّثه للنَّثْر والنَّظْم مسموع ومُلْتَثِمْ
فد قلت لو قبـل الوعظ المبين له خَفِ المهيمين فينا إننا نَسَمْ
فقال مَنْ ضَرَّجَتْ خدى نظرتُه فإن سيف جُفونى مِنْهُ ينتقمْ

يا رأس الدير : يا عظيم القوم ، والدير : موضع القسِّيسين ، أراد به حَلْقَة أصحابه . تِلْوه : التابع له ، أو الجالس إلى جانبه . صنوه : أخوه الَّذِى على قدر سِنِّه . ادْنُ : اقرب . نُوَيْرة : تصغير نار ، شبّه فى حدته وذكائه بها ، أو فى حسنه وبهائه . والدويرة : تصغير دارة ، وهى حَلْقتهم التى اجتمعوا فيهـا ، فكأنه قال : يا قمراً فى أصحابه .

## [ ممَّا قيل فى الغلمان الكتاب ]

ومما قيـل فى غلام كاتب : سأل الثعالبىّ أبا الفضل الدارمىّ أن يصف له غلاماً كاتباً حسن الخطّين : خَطّى اليد والوجه ، فقال :

وكاتب أهـــديتُ نَفْسى له فهى من الشُّوء فِدَى نفسِهِ
سلّط خـــدّيه على مُهجتى فاستأصَلاَها وهى من غَرْسِهِ
فلستُ أدرى بعـد ما حَلّ بى بِمِسْكِهِ أتلف أم نِقْسِـــهِ

وقال فى ذلك :

وشادن أسرف فى صَدِّه ... وزاد فى التيه على عَبْدِهِ
الحسن قد بَثَّ على خدّه ... بنفسجاً يربُو على وَرْدِهِ
رأيتُه يكتب فى طِرْسِهِ ... خطًّا يبارى الدُّرَّ فى عِقْدِهِ
فقلتُ ما قد خطَّه كفُّه ... للحسن قَدْ خطَّ على خَدِّهِ

ولابن رشيق :

كتبت ولو أننى أستطيعُ ... لإجلال قَدْرك دُون البشَرْ[1]
قَدَدْتَ البراعة من أنملى ... وكان المدادُ سواد البَصَرْ

وله أيضاً :

عزيز يُبَارِى الصُّبْحَ إشراق خدِّه ... وفى مَفْرِق الظَّلْمَاء منه نسيبُ[2]
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوانَهُ ... ويهتزّ فى برديه منه قضيبُ

ولابن المعتز فى العِذار المشبه بالحروف :

بليتُ بشادنٍ كالبدر حُسْناً ... يُعَذّبنى بأنواع الدَّلَالِ
غُلالة خدّه ورد جنىٌّ ... ونون الصُّدغ معجمة بخالِ

وله أيضاً :

كأن خطَّ عذارٍ فوق وجنتِهِ ... مَيْدَانُ آسٍ على وَرْدٍ ونَسْرِينِ
وخطَّ فوق حَباب الدّر شاربه ... بنصف صادٍ ودار الصُّدغ بالنونِ

وله أيضاً :

لَهُ من عيون الوحش عينٌ مريضة ... ومن خضرة البستان خضرة شاربِ
كأن غُلاماً حاذقاً خطَّه لَهُ ... فجاء كنصف الصَّاد من خط كاتب

(١) التنف ٣٧
(٢) التنف ٧

وقال آخر :

تعلّم العطف من صُدغيه فانعطفَا وكان عادتُه ألّا يفِي فَوَفَى
دبّ العِذار على ميدان صَفْحَتِهِ حتى إذا هَمّ أنْ يسعَى به وقفَا
كأنه كاتبٌ عزّ المِدادُ به أراد يكتب لاماً فابتدى ألفَا

وقال أبو القاسم بن المغربى :

ولمّا احتوى بَدْرُ الدّجى صحنَ خدِّه تحيّرَ حتى ما دَرَى أين يَذْهبُ
كأنّ انعطاف الصُّدغ لامٌ أمَا لَهَا أديب يُجيد الخَطّ أيّان يكتبُ

فهذه الأشعار المستعذبة الّتى بها تعلّق بالغلمان الذين يذكر أنهم كتّاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم ، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزومىّ ليس فيه شىء من الأنس للنفس .

قوله تبَاطا : أى تأخر وأصله الهمز . المعاطَى : الّذى تعطيه كأس الخمر ويُعطِيها لك ، وقد عاطيتُه وعاطانى وقد تعاطى فلان كذا، أى تناوله وأخذه ، من قولهم: عَطَوْت أعطو عَطْواً ، أى تناولت . العرائس : جمع عروس، وسمّاها عرائس لما فيها من التزيين بالنقط ، وكانت زينة العروس عند العرب أن تُنقّط فى خديها نقطٌ صغار بالزعفران ، فلذلك سمّى هذه عرائس لنقطها ، وسمّى التى قبلها عواطل لعدم نَقْطها . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع القدر ، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفتْ ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هذه الأشعار إظهار الاقتدار ، وعلى ماذكر أنها غير نفائس فهى أحسن مما عمل فى بابها ،وما أحسن ما قال ديك الجن فى جاريته :

انظُرْ إلى شمس القصور وبدرِها وإلى خُزاماها ونفحة زهرها[1]

(١) ديوانه ١٦٨ .

لم تَبْلُ عينُك أبيضاً فى أسود جمع الجمال كوجهها فى شَعْرِها
وردّية الوجَنات يختـــبرُ اسمها من ريقها من لا يحيط بخبرِها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها عجباً ولكنى بكيت لخَصْرِها
تَسْقِيك كأس مُدامة من كَفِّهَا وردّية ومدامة من ثَغْرِها

ولابن الزّقاق :

تَضَوَّعْن إشراقاً وأشرقن أوجهاً فهن منـــيرات الصَّباح بواسمُ[1]
لئن كنَّ زهراً فالجوانح أبرجٌ وإن كن زهراً فالقلوب كمائمُ

قوله : قطّ : قطع ، وقيل : القَطّ القطْع عرضاً ، والقدّ : القطع طولا . احتجر : جعله فى حجره . خط : كتب . فتنتنى ، أى عذبت قلبى . جنَّنتنى : أى صيرتنى مجنوناً . تجنى : اسم امرأة ، والتجنّى الدلال والتيه .

وللبحترىّ :

إذا خطرتْ تأرَّج جانباها كما خطرت على الأرض القَبولُ[2]
ويحسن دَلُّهَا والموت فيـــه وقد يستحسن السَّيْفُ الصَّقِيلُ

شغفتنى : بلغ حبّها شِغاف قلبى ، والشّغاف حجاب القلب . ظبى : غزال . غضيض : منكسر الطرف فاتر العينين . والغُنْج : تكسير الكلام وتخنيثه وهو المجانة . يقتضى : يتضمّن . تغيّض جفنى : سيلان عينى .

ومما قيل فى مرض العينين وحَسُن فيه التشبيه قول البحترىّ :

غـــداة تثنّت للوداع وسلَّمتْ بعينين موصولٍ بجفنيهما السِّحْرُ[3]
توهَّمتُها ألوى بأجفانهـــا الكَرَى كَرَى النّوم ، أو مالت بأعطافِهَا الخمرُ

(١) ديوانه ٢٩٧ .
(٢) ديوانه ٨٢٢ .
(٣) ديوانه ٨٤٤ .

وقال ذو الرُّمة :

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيمُ الحواشى لا هُراء ولا نَزْرُ[1]
وعينان قال الله كونا فكانتا فعُولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تقدَّم جملة من هذا .

غشيتْنِي : أتتنى على غفلة . شفَّتنى : أنحلت جسمى . والزّى : الهيئة الحسنة من اللباس . يشفّ : يفضل . تثنّ : اهتزاز وانعطاف . تظنَّيت : حسبت . تجتبينى : تختارنى . بنفْث : بلفظ وكلام . والجيب : القلب . يبغى : يطلب . تشفّى صِفْنى : إزالة عداوتى . نزت : وثبت . تجنُّبى : بعدى . ثلثنى : ردّتنى . نشيج : صوت البكاء . يشجى : يحزن . بفنٍّ ففنّ : بنوع فنوْع .

* * *

فلمَّا نظر الشيخُ إلى ما حبَّره ، وتصفَّح ما زَبَرَه ، قال له : بورك فيك من طَلاَ ، كما بُورِك فى لا ولا . ثم هَتَف : اقرُب ، يا قُطْرب ، فاقترب منه فتًى يَحْكِى نَجْمَ دُجْية ، أو تِمْثالَ دُمْيَة ، فقال له : ارْقُمِ الأبيات الأَخْيَاف ، وتجنّبِ الخِلاف ، فأخذ القلم ، ورَقَم :

اسْمَحْ فَبَثُّ السّماحِ زينٌ ولا تَخِبْ آملاً تَضَيَّفْ
ولا تُجُز ردَّ ذِى سؤالٍ فَنَّنَ أم فى السؤال خفَّفْ
ولا تظنَّ الدُّهورَ تُبْقِى مَالَ ضَنينٍ ولَوْ تقشَّفْ
واحْلُمْ فحُفْن الكِرام يُغْضِى وصَدْرُهُمْ فى العَطاء نَفْنَفْ
ولا تَخُنْ عهدَ ذى ودادٍ ثبْتٍ ولا تَبْغ ما تَزَيَّفْ

* * *

(١) ديوانه ٢١٢

حبَّره : زيّنه . زبره : كتبه . طَلا : غزال . لاولا ، يعنى الزيتون ، ومن كلام العامة : بورك فيك كما بورك فى الزَّيت ، وأراد بلاولا قولَه تعالى : ﴿تُوقَدُ من شَجَرةٍ مُبَارَكةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقيّةٍ ولا غربيّة﴾[1] ، فأخذ من الآية لا ولا واكتفى بهما .

الفنجديهى : يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعيا الأطباء علاجُها ، فلما أيسَ رأى النبى صلَّى الله عليه وسلم فى النَّوم فشكا إليه علّته المزمنة ، فقال له : عليك بلَاولا ، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين ، فقال له : إن صدقتْ رؤياك فإنه صلى الله عليه وسلم أمرك بتناول الزيتون ، فتناولها الرجل فبرئ من علّته ، فقال لابن سيرين : من أين قلتها ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿زَيْتُونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّة﴾ ، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ، أى ليست تطلع عليها الشمس أوّل النهار فقط ، ولا غربيّة أى عند الغروب فقط ، أى لايسترها من الشمس فى وقت من النهار شىء ، فهو أنضَرُ لها وأجود لزيتها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

قوله : هتف : صاح . قطرب : خفيف النوم ، والقطرب : دويبّة تمشى بالليل . وجنّية : تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلا ، والعامة تبدل طاءها تاء ، والعرب تسميها النَّئْدلان ، والكابوس والجاثوم ، ويسمّيها أهل بغداد البحت . دُجْية : ظلمة . دميسة : صورة رخام ، وجمعها دُجًى ودُمًى وكأنّ صورة هذا الغلام الذى ذكر الشاعر :

بَدَا فبدا من وجهه البدرُ طالعاً ... لدى الروض يستعلى قضيبا منعَّما
وقد أرسلت أيدى العذارَى بخدِّه ... عِذاراً من الكافور والمسك أسْحَما
وأحسِب هاروتاً أطاف بطرْفه ... يعلّمه من سحره فتعلّما
ألمّ بنا فى دامسِ الليل فانجلى ... فلما انثنى عنّا وودّع أظلما

(١) سورة النور ٣٥

والأبيات للأمير أبى الحسن أحمد بن عضد الدولة .

وقال أبو إسحق الحصرى مؤلف كتاب الزهر :

عليلُ طرفٍ سقيتُ خمراً مِنْ مقلتيه فتُّ سكرا
ترقرقت وجنتاه ماء مازج فيه العقيق دُرّا
يُحرّك الدلّ منه غصناً ويُطلع الحسنُ منه بدرا
قد نمّ مسكٌ بعارضيه خلّف للعاشقين عُذْرا

قوله : الأخياف ، أى المختلفة . وقوله : فأخذ القلم ورقم ، كأنّ أبا إسحاق الحصرى إيّاه عنَى بهذه الأبيات :

إذا بدا القلم الأعلى براحتهِ مطرّزاً لرداء الفجر بالظُّلَمِ
رأيتَ أسود فى الأبصار أبيض فى بصائر لحظها للفهم غير عمِى
كروضةٍ خطرتْ فى وشى زهرتها وافترّ نَوّارها عن ثغرِ مبتسم

وكأنّ الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال :

يا ريم هاتِ الدواة والقلَما أكتب شَوْقى إلى الّذى ظَلَمَا[1]
غضبان قد غرّنى رضاه ولو يُسأل فيما غضبت ما عَلِمَا
لو نظرتْ عينهُ إلى حَجَرٍ ولّد فيه فتورُها سقَمَا
فليس ينفكّ منه عاشقُه فى جمع عذرٍ لغير ما اجْتَرَمَا
علقتُ مَنْ لوأوى إلى أنفس الماضين والغابرين ما ندمَا

قوله : اسمح : جُدْ . بث : نشر . آملا : راجياً . تضيّف : طلب منك أن تضيفَه . فنّن : أتى بفنون من السؤال . ضنين : بخيل . تقشّف : ترك النظافة .

(١) ديوان أبو نواس ٣٣

يُغْضِي: يتغافل . تفنف . واسع ، والتفنف متسع الأرض . ثبتْ : صادق الودّ ، ويروى : نَثّ أى نشر . تبغ : تطلب . تزيّف : تنقص ، وصار زائفاً ، وهو الدرهم الردىء .

* * *

فقال له : لَا شَلَلْتَ يداك ، وَلَا كَلَّتْ مُداك . ثم نادى : يَاغَشْمَشم ، يَا عِطْرَ مَنْشَمْ ، فَلَبّاه غلامٌ كدُرّه غَوَّاص ، أَوجؤ ذَرِ قَنَّاص ، فقال له : اكتب الأبيات الْمَتَائِيم ، ولا تكن من المشائيم ، فتناول القَلَم المثقَّف ، وكتب ولم يتوقّف :

زيِّنَتْ زينبٌ بقـــدٍّ يَقُدُّ ... وَتَلاه ويـــلاه نَهْدٌ يَهُدُّ

جُنْدها جِيدُها وظَرفٌ وطَرْفٌ ... ناعِسٌ تاعسٌ بحـــدٍّ يَحُدُّ

قدرُها قدْ زَهَا وتاهَتْ وباهَتْ ... واعْتدتْ واغْتدتْ بِخَـــدٍّ يَخُدُّ

فارَقَتْنِي فأَرّقَتْـــنِي وشَطَّتْ ... وسَطَت ثمّ نمّ وجْـــدٌ وجِدُّ

فدنتْ فدَّيتَ وحنَّتْ وحَيّتْ ... مُغْضَباً مُغْضِـــيا يَوَدُّ يُوَدُّ

* * *

قوله كلّت ، أى حفيت . مُداك : سكاكينك ، جمع مُدْية . الغشمشم : الذى لا يردّه شىء عن مراده .

[ أصل المثل : دقّوا بينهم عطر مَنْشَم ]

عطر مَنْشَم ، قيل : كانت مَنْشَم جارية عطّرت رجالها حين خرجوا للقتال ، فقُتِلوا عن آخرهم ، فضرب بها المثل فى الشؤم . وقيل : بل الإشارة إلى عطارة ، أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَها فتطيّبوا فاستغاثت بقومها ، فخرجوا فى طلبهم ،

فمن شمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه ، ومن أوّله على هذا قال : عِطْرَ مَنْ شمّ ، فجعلوه من كلمتين . وقيل: الكناية عن قرون السنبل الّذى يقال إنه سمّ ساعة .

وذكر ابن الكلبىّ أنها امرأة من خُزاعة كانت تبيع العطر فتطيَّب بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت ، فماتوا .

وقال غيره : بل هى صاحبة يَسار الكواعب ، وكان عبداً أسود مُشوّه الخلقة راعىَ إبل ، فمتى رأته النساء ضحكن منه ، فتوهّم أنهنّ يضحكْنَ من إعجابهنّ بحسنه ، فقال يوماً لرفيق له : أنا يسار الكواعب ، ما رأتنى جارية كاعب إلا وعشقتْنى ، فقال له رفيقه : يايسار ، اشرب لبن العِشار ، وكل لحم الحُوار[1] ، وإياك وبنات الأحرار ، فأبى وراود مولاته عن نفسها ، فقالت له : مكانك حتى آتيك بطيب أشمك إياه ، فأتته بموسى ، فلما أدنى أنفه ليشمّ الطيب جدَعته .

ويقال إنه لما راودَها قالت له : أهكذا تأتينى بذفَرِك ووَسخِك ! ادنُ حتى أعطّرك ، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدّتها له ، فقبضت على ذكره وخصيته ، فاقتطعت الجميع ، فخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له : ماهذا ؟ فيقول : عطرُ من شمّ .

وقيل : كانت تبيع الحَنوط وهو عطر الموتى .

وقيل : المُنْشَم : الشر نفسه ، وقيل : المنشَم ثمرة سوداء منتنة .

وقيل فيها غير ما ذكر .

وذكر الحريرى فى الدرة أكثَر هذه الوجوه، وذكر أن كسر شين منشِم أكثر وأشهر ويروى بفتحها .

قوله المتائيم : جمع مُتْئِم ، وهى التى من عادتها أن تلد توأمين ، ولما كانت أبياته لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة ، سمّيَتْ متائيم ، وقيل : المتائيم : جمع توأم على غير قياس . المشائيم : جمع مشآم ، وهو الكثير الشؤم ، وشبّه بدرّة

(١) العشار : اسم يقع على النوق والحوار : ولد الناقة إلى أن ينفصل عن أمه .

غواص فى بياضه ورقة ديباجه . وجؤذر قنـاص ، هو الظبى الفاتر العينين ، والقنّاص : الصياد ، فـكأنه يصطاد بعينيه مَنْ نظر ، وإن أضفت جؤذر إلى القناص فمعناه مستقيم ، فيصفه بالخوف وكثرة التلفّت خشية أن يُصاد . وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحسيب أبو المطرّف الزّهرى فى هـذا المعنى وكان جالساً فى باب داره مع زائر له ، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة الوجه كالشمس الطالعة ، فحين نظرتْهما على غفلة نفرت خجلة فزِعة ، فرأى الزائر ما أبْهته ، فـكلّفه وصفَها ، فقال مرتجلاً :

يا ظبيةً نفرتْ والقلب مَسْـكَنُها ... خوفاً لختلىَ أو عمـداً لتعذبي
لتأمنى فابنُ عبد الحىّ ألحقنـا ... عِدْلاً يؤلف بين الظبى والذيب

وكأنّ ابن رشيق وصف هذا الغلام الـكاتب حيث قال :

وفاترِ الأجفان ذى وجنـةٍ ... كأنها فى الحسن ورد الرّياضْ[1]
قلت له : يا ظبى خُذْ مهجتى ... داوى بها تلك الجفون المراضْ
فجاوبتْ من خـدّه خجلة ... كيف ترى الحمرة فوق البياضْ

وقال أيضاً :

بين أجفانك سحرُ ... ولأغصانك بدرُ[2]
جرّدت عيناك سيفيـن لذا أمْرُك أمْرُ
فعلى خدّيك من نَزْ ... ف دِما العشّاق أثرُ
ومن الـكثبان شَطْرٌ ... لك والأغصان شطر
وسـواء قلت درٌّ ... ما أرى أو قلت ثَغْرُ
وبماذا أصف الخَصْـر وما إن لك خَصْرُ
بك شغلى واشتغالى ... ومضى زيد وعمرو

(١) التنف ٤١ (٢) التنف ٣٠

وقال خالد الكاتب :

قد قلتُ لمّا أن بدا متبختراً والرِّدف يجذب خَصْره من خَلْفِه
يا من يسلِّم خَصْرَه من رِدْفِه سَلِّمْ فؤاد محبِّه من طرْفِه

وله مما يتعلق بالكتابة :

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبْ
فكيف تخطّ وقلبي يمـلّ وعَيْنِيَ تمحو الّذي أكتبْ
فليس يتم كتابي إليك بشوقي فمن هاهنا أعجبْ

قوله : زينت زينب بقدّ يمدّ ، إنما أراد يقد يقدّ ، أى ينقطع لرقة خَصره ، فعوّض منه يقدّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج . وقال البحترىّ فى القدود :

من السّمر اللدان إذا اسْبَكرَّتْ وصرف الموت فى السّمر اللّدانِ
شبيهات الرّماح قنى جفـونٍ وكلمٍ فى القلوب بلا سنانِ
فهل من ضربةٍ أو من سنانٍ كعين أو كثغر أو كبَنَانِ

وقال السرىّ :

قَامَتْ وخُوط البانة الـمـيّاس فى أثوابِهـا
تسقى بصهباءين من ألحاظها وشَرَابِهـا
ويهزّها سُكرانِ سُكْـر شرابها وشبابِهـا
وكأنّ كأس مُدامهـا لما ارتدت بحبَابِهـا
توريد وجنتِهـا إذا مالاح تحتَ نقابِهـا

وقال القاضى أبو حفص بن عمر :

هـــذا فؤادى أقصدتْه الأَسْهُمُ مَنْ ذا يرى تلك الجفونَ وَيَسْلَمُ
يا غرّة حكم الجمـــال لَهَا على شمس الضحى وأصاب فيما يحكمُ
يحكى الجآذرَ جيـــدُها ولحاظُها هيهات دون العـــالم المتعظِّمُ
وكأنّ قامَتها ونغمـــة لفظها غُصْنٌ عليه بلبـــلٌ يترنّمُ
يضحى الخـــلىّ إذا رآها عاشقاً والعقل توقظه اللحـــاظ النوّم

وما أحسن ماقال أبو الحسن بن القبطُرنة :

ذكرت سليمى وحرّ الوغى كقلبى ساعة ودّعتُهـــا
وأبصرت بين القنـا قدّها وقد ملن نحوِى فعانقتُها

قوله : تلاه ، أى تبعه . ويلاه : دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى نَهْداً لا يصبر عنه .

## [ فى وصف النهود ]

ومما جاء من التشبيهات الحسان فى أوصاف النّهود قول عمرو بن كلثوم :

وثدياً مثـــل حقّ العاج رخصاً مصاناً من أكفّ اللّامسينا[1]

بشار :

والنهد تحسبه وسنانَ أو كسِلاً وقد تمايل ميلاً غير منكسرِ

ابن الرومى :

صـــــدور فوقهنّ حقاق عاج ودرٌّ زانه حُسْنُ اتّساقِ
يقول القـــائلون إذا رأوْه أهذا الدّرّ من هـــذى الحقاقِ !

(١) المعلقات — بشرح التبريزى ٣١٤

وأخذه من قول عبد الله بن السبط :

كأنّ الثّدى إذا ما بدت وزان العقود بهنّ النّحورَا
حِقاقٌ من العاج مكنونةٌ يَسَعْنَ من الدرّ شيئاً يسيراً

ولإدريس اليمانى :

أيا ربّة النّهد الذى بسنانِه يحطّ فتى الهيجاء عن فرس نَهْدِ
أحقان مِنْ عاج بصدْرك أم هما رقيبان قد قاما على جَنّة الخلدِ

ومن البدائع الروائع قول الآخر :

وذات دلالٍ سبتْ مهجتِى بمستشرفيْن على مئزرِ
كأنهما خُوطُ كافورةٍ بأعلاها نُقْطَتَا عَنْبَرِ

وللقاضى عبد الوهاب ، ويروى لغيره :

يا صاحبىَّ قبالتى خُمصانةٌ مالت فمال الدِّعْص من أعْطَافها
فى الصَّدْر منها للطّعان أسنَّةٌ ما أشرعت إلا لجنْى قِطَافها
إن تنكرا قتلى بها فتبيَّنا تجدا دمِى قد جفّ فى أطرافها

على بن الجهم :

كنتُ مشتاقاً وما يحجزنى عنك إلا مانع يمنَعُنِى[1]
شاخص فى الصدر غضبانُ على قَبَبِ البطنِ وطىّ العُكَنِ
يملأ الكفّ ولا يفضلُها فإذا أثنيتَهُ لَا يثْنَنِى

* * *

قوله جيدها : أى عنقها ، وكأنّ حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله:

كالخوطِ فى القدّ والغزالة فى البهْجة وابن الغزال فى غِيدِه
وما حكاه ولا نعيم له فى حسنه بلْ حكاه فى جِيده

(١) ديوانه ١٨٨

وإن كان هذا الجيدُ عاطلًا حلّيناه بقول ابن العباس الأعمى :

ونبِّئتُ ذاك الجيـدَ أصبح عاطِلًا خذى أدمعى إن كُنْتِ غَضْبى على الدرِّ
خـذى فانظميها أو كِلِينى لنظمِها حُلِيًّا على تلك التَّرائب والنَّحْرِ
خذى اللؤلؤ الرطب الذى لَهِجُوا به مَحارتُه جفنى ولجّته صَـدْرِى
ولا تخبرى حُور الجنان فربَّما غَصَبْتَنكه بين الخديعة والمكرِ

طرف : عين . ظرف : حلاوة ورشاقة ، وجعل الطَّرف والعُنق جنداً لها ، لأنها لما حسُنَتْ معنى هـذه الصفات انقاد لها عشّاقها أذلاّء ، فكأنها أغارت على قلوبهم فاستلبتْها ، وقد قال فيما تقدَّم :

وأحوى حوَى رقّى لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته . وقال حبيب :

وحشيّة ترمى القلوب إذا اغتدت وسْنَى فـا تصطاد غير الصِّيدِ

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها ، وهذا المعنى لا يحصى كثرة .

وأراد بالنّاعس الفاترَ النّظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن . يحدّ : يمنع من رآه من التسلى والتصبُّر . زهاً : تكبّر . والتّيه : ضرب من الزّهو ، وهو الكِبْر . باهت : فاخرت وعظمت . واعتدت : ظلمت . يخدّ : يقطع ، أى أن خدّها يقْطع فى القلوب لاسيما إن كان كما قال من أحسن :

وبيضـاء تحسبها دُرَّةً تضىء الدُّجَى إن بدت أو تكادْ
تُنَعِّمُ بالمسك كافورتىْ محيًّا حوَى الحسن طُرًّا وزادْ
فقلت : أوصلُك هـذا البياض وبعض صدودك هـذا السواد
فقالت : أبى كاتب للملوك دنوت إليه بحسن الوداد
فخافَ اطـلاعى على سرّه فلم يعد أن رشّنى بالمِدَادْ

فوصفها بأنّ فى خدّيها خيلانا .

قوله : أرَّقتنى ، أى منعتنى النوم . شَطَّت : بعدت . سَطَتْ : بطشت . نَمّ : أفشى السرَّ ، أى أفشى ما بى من الحب . وجْد : حزن من الحبّ وهمّ . جدّ : اجتهاد . فدنت : قربت . حنَّت : أشفقت . مغضياً : متغافلاً عمّا ينال منه . يودّ : يتمنى . يُوَدّ : يُحَبّ ، يقول : لما نمَّ لها وجدى بما أجِنُّه من حبّها وأبصرت ما فعل هجرها بى دنَتْ عند ذلك منّى شفقةً ، وحيّتنى بسلامها وأنا فى حال غضبان ، لما حلَّ بى من الهجر متمنِّياً أن تجيئنى ، فلمَّا سلمتْ علىّ أزالت غضبى ، وأغضيت عما سلف من الفعل القبيح .

## [ أبيات حسان فى وصف الجوارى ]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هـذه الجارية جملة مستظرفة ، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

يَزيدنى البعـد شوقاً إليكِ ... وطُول صُدودُكِ حِرْصاً عليكِ
ولو كنت أملك ما تملكينَ ... من الصّبر ما طال شوقى إليكِ

وقال آخر :

وما أنسَ لا أنسَ ذاك الخضوعَ ... وفَيْض الدموع وغمز اليـدِ
وخـدّى مضافٌ إلى خـدِّها ... قياماً إلى الصُّبح لم نرقُدِ

وقال أبو مطرف الزهرىّ :

مرَّتْ بنا وبَدَتْ كالبدر وانفلَتَتْ ... كالغصن والتفتتْ كالشادن الخرِقِ
تسربلتْ ببرود الحُسْن والتحفتْ ... بالغُنْج واشتملت مِرْطاً من الغسَقِ

وقال السّرى :

لبستْ مصندلة الثّياب فَمَنْ رأى ... قمراً تسربل قَبْلَهـا أثواباَ[1]
وحكَتْ من الظبى الغرير ثلاثةً ... جِيـداً وطرفاً فاتراً وإهاباَ

(١) ديوانه ٦٣

وله أيضاً :

مذهبّة الخـــدود بجلنار مفضّضة الثّغور بأقحُوان[1]

سَقَانا اللهُ من ريّاك ريًّا وحيَّانَا بأوجهك الحِسَان

وللقاضى أبى حفص :

همُ نظروا لواحظَها فهامُوا وتشرَّب عقلَ شاربها المُدَامُ

سَمَا طرفِى إليهـــا وهو باكٍ وتحت الشَّمس ينْسَكِبُ الغمامُ

يخاف النَّاسُ مقلتَها سِوَاها أيذعر قلبٌ حامله الحسامُ !

وأذكر قَدّها فأنوح شوقاً على الأغصان تنتدب الحمامُ

وأعقب همّها فى الصَّـــدْرِ غمًّا إذا غربَتْ ذكاء أتى الظَّلامُ

وله أيضاً :

أعيذك يا سليمىَ من سُلَيْمٍ قتلتِ فتاهمْ وهو الكريمُ

فمـــا لكِ طالب بتراتِ نفسى إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ

فؤادى سار نحوك عن ضُلُوع بهـا يا ريمُ حبُّك لا يَرِيمُ

ودادكُ صحّ فى قلبٍ سليم كطرفك صحّ ناظره السقيمُ

إذا أعرضتْ تسودّ الأمانى وإن أقبلتْ تبيَضُّ الهمومُ

* * *

فطفِق الشيخُ يَتأمَّل مَا سَطَره ، ويقلِّب فيه نَظَرَهُ ، فلمَّا اسْتَحْسَن خَطّه ، واسْتَصَحَّ ضَبْطَه ، قال له : لاشَلَّ عَشْرُك ، ولا استُخْبِثَ نَشرُك . ثمَّ أهابَ بفتًى فتَّان ، يُسْفِرُ عن أزهارِ بُسْتَان ، فقال له : أَنْشِدِ الْبَيْتَيْن المطرَّفَيْن ، المشْتَبِهِي الطَّرَفَيْن ، اللَّذَيْن أَسْكَتَا كُلَّ نَافِث ، وَأَمِنَا أن يُهَزَّزا بثالث ، فقال له : اسمع لا وُقِرَ سَمْعُكَ ، ولاهُزِمَ جَمْعُكَ ، وأنشد مِنْ غير تلبّث ، ولا تَرَيّث :

١) ديوانه ٢٦٨

سِمْ سِمَـــةً تَحْسُن آثارها وَاشْكُرْ لمن أَعْطَى ولو سِمْسِمَهْ
والمكرُ مَهْمَا اسْطَعتَ لا تأته لتقتَنِي السُّـؤْدَدَ والمكرُمَهْ

* * *

قوله : طفق ، أى أخذ . يتأمَّلُ : ينظر . سَطَرَه : كتبه . استصَحّ : وجده صحيحاً ، والضَّبط : الشكل والنقط : لا شَلَّ عشرُك ، دعاء ، أى لا يبستْ أصابعك ، ويروى : لا ثُلَّ عرشك ، أى لا هُدِم عزك ، والرِّوَاية الأولى هى الصحيحة . استُخْبِث : فَسَد وصار خبيثاً . نشرك : رائحتك العطرة . أهاب : دعا وصاح . يُسْفِر : يكشف عن وجهه لثامه . عن أزهار بستان : عن بياض الوجه وحمرة الخدّين والشّفتين وسواد العينين والأشفارِ وخضرة الشارب والعِذار ومحاسن لا تفى بها ناضرات الأنوار ، وقد يكون يُسفر بمعنى يَتبَسّم عن بياض شقيق وأقحوان واحمرار عقيق ومرجان ، وكأنّ هذا الغلام هو الذى ذكر أبو الرقعمق بقوله :

إذا جرتْ يدهُ فى الطرس كاتبةً تبلّج الطِّرس عن دُرٍّ ومَرْجَانِ
وإنْ تكلّم جاءته براعتهُ بكلِّ ما شاء من فَهْم وتبيانِ

وقال بعضهم يصف غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثر المِـدادِ بطِرْسِه كبنفسج الرَّوض المشوب بوردِهِ
ما أخطأتْ نوناته من صُدْغه شيئاً ولا ألِفاته منَ قـدِّهِ
وكأنما ألِفاته من شَعْرِه وكأنما قِرطَاسُه من خَـدِّهِ

ولعمر بن فتح :

فنوناته من حاجبيْه استعارها ولاماتُه من صُدْغِه المتعاطفِ
ومن صدّه المؤذى اسوادُ مداده ومن وصله المحيى ابيضاض الصحائف

ولأبى إسحاق الحصرى فى وصف هذا الغلام :

أيا من تُمسِك الأوصافُ عنه ... أعِنَّـةَ وصْفِنَا نَظْماً ونثْرَا
ومن يدعو القلوب إلى مُناها ... بعينيه فلا تأتيـه قَسْرَا
ومَنْ يُجْرِى اللآلئَ فى أقاحٍ ... يمـازج ظَلْمَهُ بَرَداً وخَمْراً
ويعرض فى رياض الدلّ غصنا ... ويطلعُ فى سماء الحسن بَدْرا
كأن بخدّه ذهباً صَقِيلاً ... أذاب عليه ياقوتاً ودُرَّا

ومنها فى وصف الكتاب :

قرأت كتابكَ الأعلى محلاً ... لدىّ ومُوقِعاً شرفاً وقَدْرَا
فأحيانى وقد غودرت مَيْتاً ... وأنشرنى وقد ضُمِّنْتُ قَبْرَا
نقشت بحالِكِ الأنقاش نَوْراً ... جَلاَ لعيـوننا نَوْراً وزَهْرَا
فدَبَّج من بَسِيط الفِكْرِ رَوْضاً ... أنيقاً مشرق الجَنَبَاتِ نَضْرَا
لو استسقى العليـلُ به لأروى ... أو استشفى العليل به لأبْرَى
هَفَا عطر الجنـوب له نسيمٌ ... أقول إذا أناسم منه نَشْرَا :
نثرتَ لنا على الكافورِ مِسْكاً ... ولم تنثر على القرطاسِ حِبْرَا

وله فى العذار :

سَلَبَتْ محاسنُه سوادَ عيوننا ... وقلوبنا وكَسَتْ أديمَ عِذَارِهِ
فبدا طرازا فى أسيلِ مشرقٍ ... ماء الحياة يجولُ فى أسرارِهِ
علم الذى استُلبت له يدُ حسنَه ... منا فمازج أمنَه بحـذارِهِ
فـله توقُّف مستريبٍ تائب ... ولنا تلهُّب عاجزٍ عن ثارِهِ

وقال أبو الفضل الدرامى :

ظبىٌ إذا حَرَّكَ أصـداغَه ... لم يلتفت خلق إلى العِطر
غنى بشعرى منشداً ليتـنى ... اللفظ الذى ضمنته شـعرى
فكلما كرر إنشادَه ... قبلتُهُ فيـه ولا يدرى

ولمهيار :

مشتبه أعرفُه وإنمـــا مغالطاً قلت لصحبي دَارُ مَنْ[1]
وحاملي على السّرور حاملِ في كفّه وَطْرفه سيفَ الفِتَنْ
قد كتب الحسنُ على عارضِه ما أقبح الهجران بالوجْه الحَسَنْ

ولأبي إسحاق الطليطلي :

ومعذَّرٍ رَقَّتْ له خمر الصبا حيث العـــذار حبابها المترقرقُ
ديباج حسنٍ تاه عقلا ناقصاً فأتمها عـــلم الشّباب المونق
وشكا الجمال مقيلَه في وَرْدِه فأظلّه آسُ العـــذار المشفِقُ
عامت بماء الصّقْل شامةُ خدّه وحما العِذار زُوَيْرقاً لا يغرق
إن كان يمحو نقشه من خـده فطـلا الغزال بمسكها يتفتّقُ

قوله : المطرّفين ، أى الغريبين ، وقد أطرفته ، جئته بطُرفة ، أى بشيء معجب . نافث : متكلم . يعزّزا : يقوّيا ويشدّدا ، وإذا صلب الشيء قيل: تَعزَّز وأصله من العَزاز وهى الأرض الصلبة .

وقال فى الدّرة : ويقولون شفّعت الرّسولين بثالث فيوهمون فيه ، والعرب تقول : شفعت الرّسُول بآخر، أى جعلتهما اثنين ليطابق معنى الشفع فى كلامهم ، وهو اثنان ، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال : عززت بثالث . قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، والمعنى فى عَزّزْته قوّيْتُه . وأعززته : جعلتَه عزيزاً ،فإن واترت الرّسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا ﴾ .

وما أحسن ما قال ابنُ شرف فى العذار وذكر التعزيز بثالث :

(١) ديوانه ٤ : ٤٧

قد كنتَ فى وعد العذار فأنجزا وقضى لحسنك بالكمال فأوْجَزَا[1]
وافى لنصرِ الحسن إلا أنه ولّى إلى فئة الهوى متحيِّزا
عطفٌ تعلّم منه قلبى عطفَه وجَدَ الفؤادُ به السَّبيلَ إلى العزا
لم يكف وجهَك حسنُه وبهاؤُه حتى اكتسى ثوبَ الجمالُ مطرّزا
سبحان مَنْ أعطاك حُسْناً ثانياً وبثالثٍ من حُسْنِ فعلك عَزَّرا

الْوَقْر : الثقل فى الأذن . تلبّث : طول إقامة . تربّث ، إذا احتبس ومكث ، ويقال: تربّث بنقطتين وتربّث تربّثاً بواحدة ، والمعنى فيهما واحد . سم : عَلَم . سمة : علامة . سمسمة : حبة جلجلان . المكر : الخداع . تقتنى : تكتسب . السودد : الشرف . والمكرمة : الكرامة .

وممن اشترط أن بيتيه لا يعززان بثالث قبل الحريرى أبو دلف حين قال :

أنا أبو دلفٍ المهدى بقافيةٍ جوابها يهلك الزّاهى من الغيظِ
مَنْ زاد فيها له رَحْلِى وراحلتى وخاتمى والمدى فيها إلى القيظ

وذكر الحصَرى الأعمى المكرمة فى تجنيس قوافيه ، فسمع قوماً يقدحون فيه وفى أبى خلصة فقصده وقال :

يا أديبا ملكتنى فى يديْهِ المكرُمات
ليت قوماً دأبهم فىّ وفيك المكْرُماتوا

وله :

رب ظبى هويتــه نتمنى للهــوازِنهْ
قلت :ماأثقل الهوى قال: ماللهوى زِنَهْ

(١) النتف ١٠٢

وله أيضاً :

إن كتمتَ الهوى فقد صار سرِّى علانيَهْ
بسقام أذابنى وشحوبٍ علانيَهْ

* * *

فقال له : أجدْتَ يا زُغْلول ، يا أبا الغُلول ، ثم نادى : أوضِحْ يا ياسين ، ما يُشْكِل من ذوات السِّين ، فنهض ولم يتأنّ ، وأنشدَ بصوتٍ أغَنّ :

نِقْسُ الدَّواة ورُسْغُ الكفِّ مثبتةٌ سِينَاهما إن هُمَا خُطَّا وإن دُرِسَا

وهكذا السِّين فى قِسْبٍ وباسقةٍ
والسَّفْح والْبَخْس واقْسِرْ واقْتبِسْ قَبَسَا
وفى تقسّسْتَ بالليل الكلامَ وفى مُسَيْطِرٍ وشَمُوسٍ واتخذ جَرَسَا
وفى قَرِيسٍ وبردٍ قارسٍ نفذ الصّوابَ مِنِّى وكُنْ للعلم مُقْتبِسَا

فقال له : أحْسَنْتَ يا نُغَيش ، يا صَنَّاجة الجيش ، ثم قال : ثِبْ يا عنبسة ، وبين الصادات الملتبِسَة ، فوثب وَثْب شِبْلٍ مُثار ، ثُمَّ أَنْشَدَ من غير عِثار :

بالصاد يكتب قد قَبَصْت دراهماً بأناملى وأصِخْ لِتَسْتَمِعَ الْخَبَرْ
وبَصَقْتُ أبصُق والصِّماخ وصَنْجةٌ والقصُّ وهو الصَّدْرُ واقتصّ الأثَرْ
وبخصْتُ مقلتَه وهذى فرصةٌ قد أُرْعِدتْ منه الفريصةُ للخوَرْ
وقَصَرتُ هِنْداً أى حبست وقَدْ دَنَا فِصْحُ النَّصارى وهو عيدٌ مُنْتَظَرْ
وقَرَصْتُه والخمر قارِصَةٌ إذا حَذَتِ اللِّسانَ وكلّ هذا مُستَطَرْ

* * *

أجَدْت: أتيت بجيّد . الزُّغلول : الخفيف، وزغلول الرجل: ولدهُ ، والغلول: الخيانة فى المغنم ، وأصلُه الستر والتغطية ، تقول : غلَّ الشَّىء غَلاًّ وغُلُولا ، إذا ستره ، وصفه كأنه يغُلُّ العقول ، أى يمسكها ويخون أصحابها فيها ، وقالت عُلَيَّة :

* يا غُلَّ ألباب الرجال *

أوضح : بيَّن . يتأنَّى : يتباطأ ويفتر ، والتأنى : التّثبت ، وفى الحديث أنه نظر صلى الله عليه وسلم إلى رجل يتخطَّى رقاب الناس يوم الجمعة ، فقال : « آنيتَ وآذيت » ، أى أخّرت المجىء ، ويكون يتأنَّى من قولهم : فلان ذو أناة منَ وَنَى يني ، وتكون الهمزة مبدلةً عن واو ، وهو الأظهر . أغنّ : فيه غُنَّة ، وهو البَحح الخفيف ، والأغنّ : الّذى يتكلم من قِبَل خياشيمه . نِقْس : مداد . رسغ الكف : موصلها من الذراع . والْقَسْب : نوى التمر . باسقة : نخلة طويلة . السَّفْح : أسفل الجبل . البخْس : النقص . اقْسِر : اقهر واغلب . اقتبس قبَساً : اطلب شعلةً من نار . وتقسّست : تتبّعت . والشَّمُوس : الدابة التى تمنع أن تُسرج وأن تُرْكَب . جَرَساً : الذى يضرَب به فيصوِّت . قَرِيس : حوت . قارس : شديد . مقتبساً : طالباً حريصاً على كَسبْه .

قوله : نُغَيش ، أى كثير الحركة ، وقيل : نُغَيْش تصغير النَّغاش من الرجال الحقير الخلْقة ، الغاية فى القصر ، فصفة هذا الغلام أنه حقير الخلقة كثير الحركة ، وقلَّما تكون تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدّة . ورواه الفنجديهى « نفيش» بالفاء ، أى قصير . ثعلب : النفّاشون ، هم القصار الضّعاف الحركة ، ومنه الخبر أنه رأى نفَّاشاً فسجد شكراً ، قال: والنَّفْش: تحرّك الشىء فى مكانه ، يقال : دار تنتفش صبياناً ، والتنفّش : دخول الشىء بعضه فى بعض . وصنّاجة الجيش : التى يُضرَب بها المثل فى الحروب ، وقيل : الصَّنّاجة الضرَّابة بالدفوف والطنابير وعود الغناء ونحوه من آلات اللهو ، قال الهُذَلىُّ وهو ساعدة بن جُؤيّة :

وعاودنى دِينى فبتّ كأنما خلال ضلوع الصدر شِرْعٌ مُمَدَّدُ[1]

بأوب يدىْ صَنّاجةٍ عند مدمنٍ غوىٍّ إذا ما يَنْتَشِى يتغَرّدُ

يصف مافى صدره من الحُرَق . ودينه : حالته التى تعتاده من الهمّ ، والشِّرْع : الوتر، يقول: كأنما فى صدرى عود، لأوتاره رنّة مما أحدّث به نفسى من الهموم. وأوب يديْها : رجعهما بضرب الصَّنَج ، أى بتحريك يديها حين تمرّ أوتارها ، وينتشى : يسكر . ويتغرد : يتغنّى ، وفلان صنّاجة قومه ، أى المقدّم عليهم فى الفضل . وقيل : صَنّاجة الجيش هو البطل المعروف ، ويقال :ليلة قَمْراء صَنّاجة وصَيّاجة، إذا كانت مضيئة ، وصنَج فلان بفلان إذا صَرَعه . وكان أعشى قيس يُدْعَى صنّاجة العرب لفصاحته . وقيل : لرقة شعره ، وقيل : الصَّنّاجة الغناء ، ويريد بالجيش الصبية الذين جيّشوا حوله ،فُنَغِّيش صنّاجتهم، أى أنبلهم وأحذقهم أو كالصنجة فى خلقته وقصره . ثب : اقفز . عنبسة : اسم أسد . والشبل : ولده . مُثَار : مفزَّع ، وقد أُثير : استخرج من مكانه بالبحث عليه . قبصت : أخذت بأطراف أصابعى ، والقبصة أقل من القبضة . أصخ : استمع . الصُّماخ : ثقب الأذن . صَنْجة ، هى التى يوزن بها . والمقلة : شحمة العين . بخصّتُها : فقأتُها . واستلبتها فرصة : نهزة وغنيمة . والفريصة : بُضعة عند الكتِف تُرْعَد عند الفزع . الخَوَر : الضّعف . قرصته : عضضته بظفرى . حذَت اللسانَ : قرصته بحدّتها . مُسْتَطِر : مكتوب .

* * *

فقال له : رَعياً لك يا بنىّ ، فقد أقررتَ عينىّ . ثمّ استنهض ذا جُثَّةٍ كالبيذَق، ونَغْشةٍ كالسّوذَق ، وأمره أن يقف بالمرصاد ، ويسرُدَ ما يجرى على السين والصاد ، فنهض يَسْحَبُ بُرْدَيْه ، ثمّ أنشد مشيراً بيديه :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٦

إن شئتَ بالسِّين فاكتُبْ ما أبينُه وإن تشأ فهو بالصادات يُكْتَتَبُ
مَعْسٌ وفقس ومُسْطارٌ ومُمَّلِسٌ وسالغٌ وسراط الحق والسَّقَبُ
والسامِغان وسَقْرٌ والسوبق ومسْـــلاقٌ وعن كلٍّ هذا تُفْصِحُ الكتب

فقال له : أحسنْتَ يا حبّقة ، يا عَيْنَ بقّة ، ثم نادى : يا دَغْفل ، يا أبا زَنْفل ، فلبّاه فتًى أحسنُ من بَيْضَة، فى روضة ؛ فقال له : ما عَقْد هجاء الأفعال ، التى آخرها حرف اعتلال ، فقال : اسمع ، لا صَمَّ صداك ، ولا سمعت عِداك . ثم أنشد ، وما استرشد :

إذا الفِعْـل يوماً غُمَّ عنك هجاؤه فألحِقْ به تاءَ الخطاب ولا تَقِفْ
فإن تَرَ قبْـــل التاء ياءً فـكْتُبُه بياءٍ وإلاّ فهو يُـكْتَبُ بالألفْ
ولا تحسب الفعل الثلاثىَّ والّذى تعدّاه والمهموزَ فى ذاك يختلفْ

* * *

رَعْياً : حفظاً ، أى رعاك الله رعياً . استنهض : أمره بالنهوض . جُثّة : جسد . وبيذق الشطرنج ، معروف ؛ يشبَّه به الخفيف الروح الحاذق . نَعْشة : حركة . والسَّوْذق ، هو السَّذَانق من الطّير التى يُصطاد بها . بالمرصاد ، أى قريب منه حيث ينظره . يَسرد : يقرؤها بسُرْعة . يسحب برديه : يجرُّ ثوبيه .

وقال الحسن يصف مثل هذا الغلام :

يأيها المبطلونَ مَعْـذِرَتِى أراكم الله وجه تحقيقِ[1]
نمَّ بما كنتُ لا أبوح به على لسان بالدمع مِنْطِيقِ

(١) ديوانه ٨٩ ، وفيه : «وجه تصديق» والقصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع

شوقاً إلى حسن صبورة ظفرتْ ... من سلسبيل الجنان بالرِّيقِ[1]
وصيفُ كأسٍ محدّثٌ مَلِكٌ ... تيه مغنّ وظَرْف زنديقِ
يشوبُ عِـــزًّا بذلّةٍ فله ... ذلُّ محبٍّ وزهو معشوقِ
أمشى إلى جنبـــه أزاحمه ... عَمْداً وما بالطريق من ضيقِ

ومن مدحها :

وإن عبّاساً مثل والده ... ليس إلى غاية بمسبُوقِ
تأنّق الحسن حين زانكما ... ففقتما النّاس أىّ تأنيقِ[2]
فصُوِّر الفضل من حجاً وندًى ... وأنت من حكمةٍ وتوفيقِ

وله أيضاً :

ترى للحسنِ والحركات فيه ... سَواماً لا تُذَاد عن القلوبِ
فيامَنْ صِيغ من حسنٍ وطيبٍ ... جَلّ عن المُشاكل والضَّريبِ
أصبنى منك يا أملى بذنبٍ ... تتيه على الذُّنوب به ذنوبِ

قوله: سراط ، أى طريق . والسَّقْر من الجوارح : التى يُصْطاد بها . السَّوِيق: الشعير إذا قُلِىَ وطُحِن . حَبْقة : ضَرْطة . عين بقّة ، يقال : ذلك للصغير . دَغْفل : اسم رجل كان نسّابة، والدَّغفل. ولد الفيل ، والدَّغفل :الزمن الخصيب، فسُمِّىَ الصبىّ بأحدها . والزَّنْفل ، من أسماء الداهية . والبَيْضة : بَيْضة النَّعام، وجعلها فى رَوْضَة ، يريد أنها مصونة منعّمة ، وتشبيههم للنساء بهذه البَيْضة مشهور فى شعر امرئ القيس وغيره . وقيل للأوسيَّة — وهى امرأة حكيمة من العرب — بحضرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أىّ منظر أحسن ؟ فقالت: قُصُورٌ بيض فى حدائق خضر ، فأنشد رضى الله تعالى عنه لعدىّ بن زيد :

(١) الديوان : « أثرت » .
(٢) رواية الديوان :
تأنّق اللهُ حينَ صاغكما ... لأن تفُوقا فأىُّ تأْنيق

كَدُمَى العاج فى المحارِب أو كالـــبيض فى الرَّوضِ زهْرُه مستنيرُ[1]

قوله : لاصَمّ صَداك ، أى لاهلكتَ ، فلا يكون لك صوت .

وقال امرؤ القيس فى الدار الخالية :

صَمَّ صَدَاها وَعَفـــا رسمُهـا واستعجمتْ عن منطقِ السَّائلِ[2]

والصَّدى : الصوت الذى يجيبك من الجبل ، أو من الموضع الخالى ، والصَّدى : طائر يخرج من رأس المقتول ، فلا يزال يصيح : اسقونى اسقونى ، حتى يُقتَل قاتله على زعمهم . ولاصمّ صداك ، دعاء بطول العمر ، لأن الصدى تابع للصوت ، فإذا مات الإنسان انقطع صوتُه ، فلا يُسمع له صدى ، فكأنّ صداه بعد موته أصمّ لا يسمع ولا يجيب . ما استرشد ، أى ما طلب مَنْ يرشده ويدلّه .

* * *

فطرب الشيخُ لما أدّاه ، ثمّ عَوّذَهُ وفَدّاه ، ثمّ قال : هلمّ يا قَعْقَاع ، يا بَاقِعَةَ الْبِقَاع . فأقبل فتًى أحْسَنُ من نارِ القِرَى ، فى عينِ ابن السُّرَى ، فقال له : اصْدَعْ بتمْييزِ الظَّاء من الضّاد ، لتصدَع به أكْبَادَ الأضْدَاد ؛ فاهتزّ لقوله واهتشّ ، ثم أنشد بصوتٍ أجشّ :

أيّها السّائلى عن الضّاد والظّا ءِ لكيلاَ تَضِلَّه الألفاظُ

إن حفظ الظاءاتِ يُغْنيك فاسْمَعْـــها اسْتِمَاعَ امرئٍ له اسْتِيقاظُ

هى ظَمياء والمظالمُ والإظْـــلاَمُ والظَّلْمُ والظُّبَى واللَّحاظُ

والْعظا والظَّليمُ والظَّبْىُ والشَّيْـ ظَمُ والظِّلُّ واللَّظى والشُّوَاظُ

والتَّظنّى واللّفظ والنَّظْم والتَّقْـــرِيظُ والْقَيْظُ والظَّمَا واللَّمَاظُ

(١) شعراء النصرانية ٤٥٥ (٢) ديوانه ١١٩

والحِظاَ والنَّظِيرُ والظِّئْر والحَا حظَ والناظرُون والأَيْقاَظُ
والتَّشَظِّى والظِّلْفُ والعَظْم والظُّنْـــبُوبُ والظَّهْر والشَّظاَ والشِّظاظُ
والأظافيرُ والمظفَّر والمحْـــظُورُ والحافِظُون والإحفاظُ
والحِظيراتُ والمِظنّة والظِّنَّـــة والكاَظِمُون والمُغْتاَظُ
والوظيفات والمواظب والكِظَّـــةُ والإنتظارُ والإلظاظُ
ووظيفٌ وظالعٌ وعظيمٌ وظهيرٌ والفَظّ والإغْلاظُ
ونظيفٌ والظَّرف والظَّلَف الظاّ هر ثم الفِظيـــع والوُعّاظُ
وعكاظٌ والظَّعْن والمظّ والحَنْـــظل والقَارِظانِ والأَوْشاَظُ
وظرابُ الظِّرّان والسَّظَفُ الْباَ هِظُ والجَعْظَرِىّ والجُوّاظُ
والظَّرَابينُ والحَناَظِبُ والعُنْـــظُبُ ثمّ الظَّيّانُ والأَرْعاَظُ
والشَّناَظِى والدَّلْظُ والظَّأْبُ والضَّبْـــظاَبُ والعُنْظُوَانُ والجِنعاَظُ
والشّناَظِيرُ والتَّعاظُل والعِظْـــلِمُ والبَظْرُ بَعْدُ والإنعاظُ
هى هذى سوى النّوادِر فاحْفَظْـــهاَ لِتَقْفُوَ آثارَك الحفّاظُ
واقضِ فيما صرفت منها كما تَقْـــضِيهِ فى أصِله كقيْظٍ وقاظُوا

* * *

أدّاه : أبلغه ، تقول : أدّيتُ الأمانة ، إذا بلّغتَها صاحبَها . عوّذه : قرأ عليه المعوّذتين . وفدّاه : قال : نفسى فداؤك . قعقاع : شديد الصوت ، والقعقعة ، صوت متتابع . والبَاقعة : الداهية . والبِقاع : جمع بُقْعة ، قطعة من الأرض

لِقِرَى : طعام الضيف . ابن السَّرى ، هو الطارق بالليل ، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله:

فلم أزل أنصُّ عنسى وأقول : طوبى لك ولنفسى

وهم يضربون المثل بها وحدها فى الحسْن فيقولون : هو أحسن من النّار ، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل فى ريح وبَرْد وجوع ، لا يدرى أين يتوجّه ، فرأى ناراً قد أُوقِدَتْ لِقِرى الأضياف ، فلا يقدِر قَدْرَ حسنها إلا مَنْ جَرّبها .

وقالت أعرابية : كنت فى شبيبتى أحسنَ من النار .

وأنشد التوّزى ملغزاً فى النار :

وشعثاء غبراء الفروع كأنما بها تُوصَفُ الحسناء بل هى أجملُ
دعوتُ بها صحبى بليلٍ كأنَّهُمْ وقد أبصروها يعطشون فأنهلوا

فهذا مثل الّذى ذكره الحريرى .

وقال الآخر يصف ناراً :

ومشبوبةٍ لا يَقْبِس الجار ريَّهَا ولا طارق الظلماء منها يؤنَّسُ
متى ما يزرها زائر يُلْفِ دُونها عَقيلة دارىّ من المسك تفرَسُ

وأنشد أبو زيد فيها ملغزاً :

وزهراء إن كفَّفْتَهَا فهو عيشُهَا وإن لم تكفِّفْهَا فموتٌ معجَّلُ

وكان الحسن بن وهب أشدَّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد ، وكانت تغنّى فى مجلسه ، وبين يديها كانون فحم ، فتأذّت بالنار ، وأمرت بإبعادها ، فقال الحسن مرتجلا :

بأبى كرهت النَّارَ لمَّا أُوقِدَتْ فعرفتُ ما معناكِ فى إيقادها
هى ضُرَّةٌ لك بالتِماع ضِيائِهـا وبحسن صـورتها لَدَى إيقادها
وأرى صنيعَك فى القلوب صنيعَها بأرَاكها وسَيَالِهـا وقَتَادِها
شركتْك فى تلك الجهات بحسْنها وضيائها وصـلاحِها وفسادِها

وكان مع أصحابه يوماً ، فقال : لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات ، فما تكلّموا بشىء حتى دخلت ، فقال : إنى وإياكِ لكما قال علىّ بن أمية :

وفاجأتنِي والقلبُ نحوكِ شاخصٌ وذكراك ما بين اللِّسان إلى الْقَلْبِ
فيافرحةً جاءت على إثْرِ ترحة ويَا غَفْلَتِي عنها وقد نزلت قربِي

ودخلت عليه يوماً وهو محموم ، فسلّمتْ وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها فأرْعِش وقال :

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفِّهَا ولى رعـدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ
فديتكِ إنّى أشجع الناس كلِّهِمْ لدَى الحرب إلَّا أننى عنك أجبُنُ

قوله : اصدع ، أى بيِّنْ وأظهر . تصدع : تشق . الأضداد : الأعـداء . أجشّ : أبح . تضلّه : تضيّعه وتتلفه . استيقاظ : انتباه . ظمياء : عطشى .

الأزهرى : شفة ظمياء ، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمَد ظمؤها ، ولِثةٌ ظمياء ، ورجل أظمى ، وامرأة ظمياء ، وقيل : شفة ظمياء ، إذا كانت فيها سُمْرة . وساق ظَمْياء : قليلة اللحم . والظَّلْم ، بالفتح : ماء الأسنان ، وقيل : بريقها وصفاؤها ، والجمع ظلوم . واللّحاظ : طرف العين الّذى يلى الصّدغ . العَظَاء : جمع عَظَاية ، وهى دويبّة حمراء إلى الغبرة ، ذات قوائم أربع . الظَّلِيم : ذكر النعام . الشَّيظم : الطويل . اللَّظى : النار . والشُّوَاظ : لهبها بغير دخان . التّظنّى : مصدر تظنَّيت أى حسبت ، والأصل تظنّنت بالنون ، فأبدلت ياء . والتقريظ : مدح الرجل

حيًّا . والقيظ : فصل الحرّ . والظَّمأ : العطش . واللَّماظ : الشيء اليسير من الطعام وقد تلمَّظت ، إذا تتبعت بلسانك بقيَّة الطعام بعد الأكل ، واسم تلك البقية اللُّماظة ، وقيل : التّلمظ هو لَعْق الشفتين باللسان من عطشٍ أو غيظٍ . الحظا : انتفاخ اللحم . النَّظِير : المثل . الظِّئر : المرضع بالأجرة . الجاحظ : الذى بَرَزَتْ عيناه . الأيقاظ : ضدُّ النّيام ، الواحدَ يَقِظ بضم القاف وكسرها . قوله : القَشَظِّى : أن تصيِّر العودَ فلقاً ، والشَّظية : الفِلْقَة منه . والشَّظى : عظم لاصق بالركبة ، وقيل هو تشقّق عصب الذراع . والظِّلْف للغنم والبقر بمنزلة الحافر للدَّواب ، وكل حافر مشقوق ظِلْف . الظُّنبوب : مقدّم عظم الساق . والشَّظاظ : عود الشّداد ، الذى يشدّ به المتاع ، وقيل : هو عود يدخل فى عُرَا الغِرَارتين فيحملان به على ظهر البعير . المظفّر : المؤيد . المحظور : الممنوع . الإحفاظ : الإغضاب . الحظيرات: جمع حظيرة ، وهى الزَّرْب يُعمل منه شبه الدار، تسكنها الغنم والإبل ، وقد يكون من حائط ، وأصل الحظْر المنع ، وكلّ مانع بين شيئين حَظِير . والمظنّة : الموضع ترْمى فيه بظنّك ، وفلان مظنّة خير ، أى يُظنّ فيه الخير . والظنّة : التهمة . الكاظمون : المتجرِّعون غيظَهم ، وقد كَظَم غيظَه ، تجرَّعه وردّه . الوظيفات : جمع وظيفة وهى ما يلزمك من المغرَم . المواظب : الملازم ، وقد واظبت على الشيء ، داومت عليه . الكِظَّة : الامتلاء من الطعام ، والإلظاظ : اللزوم . الوظيف لكل ذى أربع : ما فَوْق الرُّسغ إلى الساق . والظالع: الأعرج . والظَّهير : القوىّ الظهر ، وهو أيضاً المُعين .والفَظّ : الغليظ ، والفظاظة: الجفاء والغِلْظة . والإغلاظ: الجفاء . والتّنظيف: النَّقِيُّ الحَسَن . والظَّلَف: المنع والردّ ، وقد ظلفتَ أثرى ظلَفاً ، إذا مشيتَ فى حُزونة الأرض وصلابتِها فمنعتَ أثرك أن يؤثر فيها . والقظيع : الكريه المطعم ، وقد قَظُع الشيء ، اشتدت كراهيتُه ومرارته . عُكَاظ : موسم للعرب . الظعن: السفر . الحنظل : شجر مرّ ،والباهظ : الغالب . والبَظْر : زيادة فى فَرْج المرأة، ورجل أبظَر: فى

شفته العليا نتوء ، وامرأة بظراء ، والأول راجع إلى هذا المعنى . الإنعاظ : قيام الذكر . النوادر : الغرائب والشواذ . تقفو : تتبع . قيظ : شدّة الحرّ ، وقاظوا : دخلوا فى زمن القَيْظ .

* * *

فقال له الشيخ : أحسنْتَ لا فَضَّ فُوك ، ولا بُرَّ مَنْ يحفوك ، فوالله إنّك مع الصِّبا الغضّ ، لأحفظُ من الأرض ، وأجمعُ من يوم العرض ، ولقد أوردتُكَ ورفقتك زُلالى ، وثقّفْتُكَمْ تثقيفَ العوالى ، فاذكرونى أذكركمْ ، واشكُرُوا لى ولا تكفُرُون .

قال الحارث بن همام : فعجبتُ لما أبْدَى من براعَهْ ، معجونةٍ برقاعة ، وأظهر من حَذَاقة ، ممزوجةٍ بحماقة ؛ ولم يزل بصرى يصعّد فيه ويصوّب ، وينقّر عنه وينقّب ، وكنت كمن ينظر فى ظَلْماء ، أو يسرى فى بهماء ؛ فلمّا استراثَ تنبّهى ، واستبان تَدَلُّهى ، حملق إلىّ وتبسّم ، وقال : لم يبق من يتوسّم . فبُهْتُ لِفَحْوَى كلامِه ، ووجدتُه أبا زيدٍ عند ابتسامِه ، فأخذت ألومه على تدَيُّرِ بقعة النوكى ، وتخيّر حِرفة الحمق ، فكأنَّ وجهه أُسِفَّ رماداً ، أو أشرِبَ سواداً ، إلا أنه أنشد وما تمادَى :

تخيرّت حِمْص وهذى الصِّناعَهْ ... لِأُرزَق حُظْوَةً أهـل الرَّقاعَهْ

فما يصطفى الدهرُ غير الرقيع ... ولا يوطِن المالَ إلّا بقاعَهْ

ولا لأخى اللُّبِّ من دهره ... سوى مالعَيْرٍ ربيطٍ بقاعَهْ

* * *

فضّ : كسر . يجفوك : يغلظ لك فى الكلام . الغَضّ : الطرىّ . يوم العرض : يوم القيامة ، ولما أشار مِنْ أوّل على أكبرهم ، انحطّ فى أسنانهم إلى أصغرهم ، فختم به كما بدأ بأكبرهم ، فلذلك قال : مع الصبا الغضّ .

مما قيل فى الصغار ]

ومما قيل فى الصغار من الشعر المستحسَن ، قال أبو الفضل الدرامى وقد سأله الثعالبى أن يصفَ له غلاماً صغيراً ، بديع الحسن ليثبت ذلك فى كتابه المترجم بألف غلام ، فأنشد :

إنّى عشقتُ صغيراً ... قد دبّ فيه الجمالُ
وكاد يفشى حديثَ الـ ... ـفُضول فيه الدّلالُ
لو مرّ فى طرق الوصْـ ... ـلِ ما اعتراه الضّلالُ
يريك بدراً منيراً ... فى الحُسْن وهو هِلالُ

قال الحسن :

حين أوفى على ثلاث وعشرٍ ... يَطَ لْ عهد أذنه بالشُّنُوفِ
غنة فيه للصبا تَعْتليه ... بحّةُ الاحتلام للتشريفِ
حين رام النِّساء منه بعينٍ ... وطوى أختها على التخويفِ

وقال آخر :

لئن يزيد على عشرٍ بواحدة ... وزاد أخرَى وشاب الحبّ بالجَزَعِ
وجاوب اللّحظ منه لحظَ عاشقه ... وجوّز الوعد بين اليأس والطمعِ
قد كان غِرًّا بقتلى ليس يُحْسِنهُ ... فاليوم يبدِع فى قتلى على البِدَعِ

وقال آخر :

قالوا أتبكى على صغيرٍ ... خصصتَه بالوداد طِفْلَا
فقلت إن البنان خمس ... أصغر ما بينها يُحْلَى

ولابن إدريس اليمانى :

عشقته شادناً صـــغيراً وكنت لا أعشق الصِّغارَا
أعارنى سقْمَ ناظـــريه فاستشرفَتْ نفسُه حذارَا
يُسفر عن وجه مستنير يردّ جُنْحَ الدُّجى نَهـارَا
لم أر من قبـــل ذاك نُوراً أضرمَ فيـــه الحياء نارَا

ولابن شهيد[1] :

راقنى من شيمه برقٌ بدا أمسنا المحبوب أوْرَى أزْنُدَا
هبَّ من نَعْسَتِه منكسراً مُسبَل الكُمّين مُرْخٍ للرِّدَا
يمسح النَّعسة من عَيْنَىْ رشاً صائدٍ فى كلّ يوم أســـدَا
قلتُ هب لى يا حَبيبِى قبـلةً تَشْفِ من حبّك تبريح الصدَى
فانثنَى يهتز من منكبِه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليَدَا
قال لى يلعب : صِدْ لِى طائراً فترانى الدّهر أجرى بالكُدَى
وإذا استنجزتُ يوماً وعدَه قال لى يمطل : ذكّرنى غدَا
شربتْ أعطافه خمرَ الصبـــا وسقاه الحسن حتّى عَرْبَدَا

ورأى الحَسَن غلاماً فى المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال :

ظفرت بقبْـــلةٍ منه على عيـــنى معلِّمْهْ
أشرتُ بها إلى يده فأوصلهـــا إلى فَمِهْ

وقال الحُلْوانى :

تعرَّضْتُ مَنْ شَغَفَنِى هجرُه ببـــــدء سلام عليه شِفَاهَا

(١) ديوانه ١٠٣ .

وقلت عساه يردُّ السَّلام فتبلغ نفسى منـــه مُنَاهَا
فجاد علىّ بتقبيـــلةٍ وقد كان أعرض عنِّى وَتَاهَا
وكنت كموسى أتى للضياء لقبس نارٍ فناجى إلهـــا

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه ، فوقّع الغلام فى كتابه : « تزاد هجراً إلى يوم الحساب » فقال الحسن :

كتبت إلى الحبيب ببيت شِعْرٍ أعاتبه فأغضبه كتابِى
أجبنى يا ملولُ على كتابِى فإنَّ النَّفْس تسكن بالجوابِ
فوقّع فى الكتابِ : يزاد هجراً وإبعـــاداً إلى يوم الحسابِ

وقال ابن رشيق فى محبوبه الصائغ :

وظبيٍ من بنى الكتّاب يَسْبِى قلـــوبَ العاشقين بمقلتيْهِ[1]
رفعت إليه أستقضى رضاه وأسأله خلاصاً من يديْهِ
فوقّع : قد رددت فؤاد هذا مسامحةً فلا يُعْدَى عليْـــه

وناوله يوماً تفاحة فقال :

وتفاحةٍ من كفّ ظبىٍ أخـذتُها جَناها من الغصن الَّذى مثلُ قَدِّهِ[2]
لها لمسُ ردفيْه وطيبُ نسيمه وطعم ثناياه وحُمْرَة خـــدِّه

ولابن فرج :

ومن ينظر إلى خـدَّيك يحكمْ على ورد الحـــدائق للخدودِ
وما اهتزَّتْ غصون الرَّوض إلا تَمَنَّتْ حُسْنَ قدِّك فى القُـدُودِ

---

(١) التنف ٨٦
(٢) التنف ٢٨

وقال مسلم بن الوليد :

تفاحـــة شاميّةٌ من كفِّ ظَبْيٍ غَزِلِ
ما خلقت مذ خلقتْ تلك لغير القبَـــلِ
كأنّما حمرتها حُمرة خـــدٍّ خَجِلِ

وقال آخر فى ضدّ ما تقدّم :

فديتك لا تخفْ منّى سُلُوًّا إذا ما غيّر الشعر الصِّغَارَا
أدين بدنّ خـلٍّ كان خمراً وأهوى لحيةً كانت عِذَارَا

وقال ابن المعتز فى مثله :

مَنْ مُعِينى على السَّهَرْ وعلى الحبِّ والفِكَرْ
ويل ما بى من شادنٍ كِبَرَ الحبُّ إذ كَبِرْ

قوله: زُلالى ،أى خالص على ّ،والزُّلال : الماء العذب الصافى . ثقّفتكم : قوّمتكم. العوالى : صدور الرِّماح . براعة : فصاحة . الحِذاقة : المهارة فى كلِّ عمل ، وهى الحِذْق ، وأصله القَطْع ، كأنّ الحاذق يقطع الأمور المشكلة بعقله ، وحذق الصبىُّ القرآن : قَطَعه حفظاً . الرَّقاعة : الحماقة ، رَقُعَ رقاعة فهو رقيع . يصعِّد : يرفع نظره . يصوِّب : ينظر فى اعتدال واستواء . ينقِّر : وَ ينقِّب : يفتش . بَهْمَاء: أرض مجهولة . استراث : استبطأ . تَدَلُّهى : تحيرى ، ودلَّه الحب : حيَّره وأدهشه . تحْملق : نظر بحملاقه ، وهو باطن جفنه ، وهو نظر المغضَب . يتوسَّم: يحسن النَّظر والميْز . بُهْتُ : فطنت، وفى الحديث « ربَّ ذى طِمْرين لا يؤبه له » ، أى لا يفطَن له لذلّتِه ، وتأبّه فلان : تكبّر ، وإنه لذو أبّهة، أى ذو كِبْر ونحوه . الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ : يقال : أبَّهْتُ له وأبهت وبهّت له بمعنى ،

قال يعقوب . تقول : ما بهت له ، وما بهت به وما أو بهتُ له ، وما بهأت له : ما فطنت له . فَحْوَى : معنى . عند ابتسامته ، قد تقدّم وصفه بالقَلَح ، يريد لمّا ابتسم ورأى قَلَحه عرفه . تدّير بُقْعة النوكى ، أى اتّخاذه حمص داراً ، وجعلهم نَوْكى لرقاعتهم ، والنَّوْك : الحمق . حِرْفة : صنعة . أُسِفّ رماداً ، أى تغيّر فكأنه ذرّ عليه الرماد . وأسفّ الجرحَ الدواء أى حشاه به . ما تمادى ، أى مادام ولا بقى على غضبه ، وتمادى فى الشىء : لَجَّ فيه . حظوة ، أى منزلة . يصطفى : يختار . يوطن : يسكن . بقاعه : منازله ، وهى جمع بُقْعة . أخى اللّب : صاحب العقل . عَيْر : حمار . قاعة : انخفاض ، أى ليس للإنسان من دهره إلاّ ما أكله .

* * *

ثمّ قال : أمّا إنّ التعليم أشرفُ صناعة ، وَأَرْبَحُ بِضاعة ، وأنجح شَفَاعة وأفْضَلُ بَراعة ، وربُّه ذو إمْرَةٍ مطاعة ، وهيبةٍ مُشاعة ، ورِعْيَةٍ مِطْواعة ، يَتَسيْطر تسيْطُرَ أمير ، ويرتِّبُ ترتيبَ وَزِير ، ويتحكّم تحكّمَ قَدير ، ويتشبّه بذى مُلْكٍ كبير ، إلّا أنه يَخْرَفُ فى أَمَدٍ يسير ، وَيتّسِمُ بحُمْقٍ شَهير ، ويتقلّب بعقلٍ صَغير ؛ ولا ينبّئك مثلُ خَبير ؛ فقلت له : تاَللهِ إنّك لابنُ الأيّام ، وعَلَمُ الأعلام ، والسَّاحِرُ اللّاعِبُ بالأفهام ، المذلَّلُ له سبُلُ الكلام . ثمّ لم أزل مُعْتكفاً بنادِيه ، ومُغْترفاً من سَيْلِ وَادِيه ، إلى أنْ غابت الأيّام الغُرّ ، ونَابَتِ الأحداثُ الْغُبْر ، ففارقته ولعينى الْعُبْر .

* * *

قوله أنجح ، أى أنفع وأسرع لقضاء الحاجة . أمْرَةٌ مطاعة ، العرب تقول: لك علىّ أمرة مطاعة ، بفتح الألف ، أى أمرةٌ أطيعك فيها . وحكى الفرّاء كسرها على ضَعْف ، والفتح أفصح ، والأمرة بالفتح : المرة الواحدة من الأمر ، وبالكسر الإمارة والولاية . مُشاعة : فاشية . يتسيطر : يتسلّط . يخْرَف : يَهْرِم . يتَّسِم : يجعل لنفسه سِمة ، أى علامة الحمق .

ومما قيل فى المعلم وتفضيله على الوالد ، أنشد الماوردى :

يا فاخراً للسَّفاه بالسَّلف ... وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا هُمُ سببٌ ... لأن جُعِلنا عوارض التلفِ
مَنْ علَّم الناس كان خير أبٍ ... ذاك أبو الروح لا أبو النُّطَفِ

أخذه من قول الإسكندر ، وقيل له : ما بال تعظيمك لمعلمك أشدُّ من تعظيمك لوالدك ؟ فقال : إن أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلّمى سبب حياتى الباقية .

ولبعضهم :

إنَّ المعـــلم والطبيبَ كلاهما ... لا يَنْصحان إذا هما لم يُكْرَما
فاصبر لدائك إن جفوتَ طبيبَه ... واصبر لجهلك إن جفوتَ معلِّما

جاء فى الحديث « يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظْم لا لحم عليه » . قال عطاء : الذين يأخذون على القرآن أجْراً . ابن الأيام : الخبير بها والبصير بحوادثها . علم الأعلام : أشهر المشاهير . الأفهام . جمع فَهِم ، أراد اللّاعب بالأذهان والعقول . سُبُل : طرق . معتكفاً بناديه : ملازماً لمجلسه . مغترفاً من سيل واديه : آخذاً من بَحْر علمه . الغرُّ : البيض الحسان . نابت الأحداث الغُبْر : رجعت النوازل الشداد التى تغبِّر الأرض من شدّة قحطها . لعينى الْعُبْر ، أى سخنة الدمع لحزنه . واستعبر : بكى . والله تعالى أعلم .